الأنثى المقدسة وصراع الحضارات

المرأة والتاريخ منذ البدايات




الأوائل

محمد إبراهيم سرتي

محمد إبراهيم سرتي

الأنثى المُقدَّسة
و
صراع الحضارات

المرأة والتاريخ منذ البدايات

الأوائل
2008

الكتاب: الأنثى المُقدَّسة وصراع الحضارات

المرأة والتاريخ منذ البدايات

التأليف: محمد إبراهيم سرتي

الإخراج الفنّي والغلاف: عبد الله الكردي

التّدقيق العامّ والمراجعة اللغوية: إسماعيل الكردي

الطّبعة الأولى : كانون الثاني **2008**

النَّاشر : دار **الأوائل** للنَّشر والتَّوزيع والخدمات الطّباعيَّة

سورية - دمشق - ص ب 10181

هاتـــف : 00963 11 44676270/1/2

فـاكـس : 00963 11 44676273/4/5

جـــوَّال : 00963 933 411550 / 00963 933 327951
00963 988 629948

البريد الإلكتروني : ***alawael@scs-net.org***

موقع الدَّار على الإنترنت : ***www.daralawael.com***

الفهرس

الفصل الأول

الإلهة الأنثى

لم يكن الجَدَل حول المرأة، طبيعتها، وكنهها، وليداً للحظة، بل إنه لم يسبق له أن توقّف منذ أن عرف الإنسان لنفسه تاريخاً على وجه الأرض. فالذّكَر لم يَعُدَّ الأنثى - يوماً - مخلوقاً مثله، فبالرغم من التشابه الظاهر بينها وبينه في الشكل والملامح وبعض الصفات الظاهرة، إلا أن قضية الحمل والولادة والإرضاع والأمومة بشكل عامّ، دائماً ما كانت تقف عائقاً أمام قدرته على الاستيعاب.

فمسألة الأمومة هذه - بمراحلها المختلفة - رسَّخت في قناعة الذَّكَر أنه مخلوق من الأنثى، فهي الكُلُّ المتكامل، وهو جزء منها، بل إنها هي التي خَلَقَتْهُ في أحشائها، وغذَّتْهُ من دمها، ثم أخرجتْهُ من جوفها شبه ميت، فاحتضنتْهُ، وأرضعتْهُ من ثديَيْها العجيبَيْن غذاءً

أسطوريّاً، كان له بمثابة أكسير الحياة، الذي صنع ما تبقّى من جسده، حتى استطاع الوقوف، والمشي، والكلام، والأكل.

ولم ينته دورها عند ذلك، بل استمرّت في احتضانه، ورعايته، وحمايته، والخوف عليه من الأخطار، وظلّت تهب له كلّ ما تملك من الحُبّ، والحنان، والعاطفة، حتى النهاية. فأخطاؤه عندها مغفورة، وسيّئاته عندها حسنات، وحماقاته كلّها لا تُغيِّر شيئًا من حبّها وعطائها اللامحدودَيْن له، فهي - بالنسبة له - الخالق، والرازق، والحامي، والحافظ، والكريم، والغفور، والرحيم.

لكنْ؛ هنالك - أيضاً - وجهاً آخر للمرأة، هو على النقيض - تماماً - من ذلك؛ فعشق المرأة ليس له نهاية سوى الدمار، وجاذبيّتها ليست كجاذبية أيّ شيء جميل، فتلك الجاذبية الغامضة تفعل في هرمونات الرجل أفاعيلها، تُحوِّل مركبات كيانه الكيميائية إلى سموم، فيتصبَّب عرقه، ويخفق قلبه، وترتجف عضلاته، وتنعدم شهيته، ويطير نومه، ويسرح فكره، وينقلب كيانه رأساً على عقب.

فَكَمْ أذلَّ ذلك الجسد الرقيق والصوت الناعم والملمس الحريري أعزَّ الرجال، وكَمْ قَتَلَ - بسببه - الرجلُ أخاه الرجل، بل كم قامت من أجله حروب، وسُفِكَتْ من أجله دماء، وشُرِّدَتْ من أجله أُمم، وأُنْفِقَتْ من أجله ثروات.

فالمرأة مخلوق جبَّار، بيده أن يفتك إنْ هَجَرَ، ويُدمِّر إنْ خان وغدر.

إنْ أقبلَ بُسِطَتْ تحت أقدامه الأيدي، والقلوب، وإنْ أدبر طارت تلاحقه العيون، والأفئدة. يأسر أعتى الرجال بطرف أصبعه، ويصرع أقوى الأبطال بلفتة لحظه. فهو مخلوق أسطوري، تجتمع فيه الأضداد، وتختلط في شخصه الغامض جميع المتناقضات. يعطي، ويأخذ، يعطف، ويقسو، يهب الحياة، ويسلبها في آنٍ معاً.

لذلك؛ فقد كانت المرأة – في قديم الزمان بالنسبة للرجل – هي الإله المعبود، الذي لا إله غيره، ولا يستحقُّ العبادة سواه.

عدَّ الإنسانُ القديم أن الشمسَ أنثى، فهي أكبر الأجرام السماوية، وأكثرها إشراقاً، وضياءً، وهي مصدر الدفء، والحياة.

والأرض أنثى، فهي التي تصنع الحياة من العدم، وتخلق من الطين طعاماً، وغذاءً.

والشجرة أنثى، فهي رمز الإثمار، والظّلّ، والعطاء، والسماء أنثى، فهي رمز الفوقية، والعُلُوّ، وسقف الحماية، والاحتضان، والثمرة أنثى والجنة أنثى، وغير ذلك.

عَبَدَ الإنسانُ القديمُ الشمسَ رمزَ القوة الأنثوية العظمى، وبناتها من الكواكب السَّيَّارة اللاتي تعكس كلّ منهنَّ جزءاً من أشعّتها، وضيائها، وسُمِّيت هذه الكواكب بالهياكل. أمَّا الشمس؛ فهي الهيكل الأعظم، الذي تفيض قوته، وتتجسَّد ألوهيته في كلّ أنثى على وجه الأرض.

فارتبطت عبادة الهياكل بعبادة كلّ أنثى، ولم تخلُ بقعة في العالم من معبدٍ للإلهة الأنثى، مصدر الحياة، والإخصاب، والعطاء.

ارتبطت عبادة الأنثى - دائماً - بثالوث مُقدَّس، فالذَّكر ضروريٌّ لعملية اللقاح، ثم تتكفَّل الإلهة الأنثى بكامل ما تبقَّى من عملية الخَلْق وحدها، ولكن أمومتها لا تكتمل إلا بوجود الابن، الذي هو نتاج لعملية الخَلْق. فالأنثى هي مركز هذا الثالوث المُقدَّس، الذي يتكوَّن طرفاه من الزوج والابن.

وهكذا لقَّح القمرُ الإلهةَ الشمسَ؛ ليخرج من جوفها كوكبُ الزهرة «عشتار». وكانت عشتار - ربَّة الحُبّ والخصب والأنوثة الكاملة - هي ربّة الأرباب، وإلهة الآلهة في العالم القديم.

الشمس المُقدَّسة وكواكبها السبع:

يقع الكثيرون في الخطأ عند اعتقادهم أن الوثنية ما هي سوى ضرب من التقديس العشوائي الأجوف لبعض المظاهر والرموز الطبيعية السخيفة، وأنها لا تعدو كونها إحدى إفرازات الخواء العقائدي للمجتمعات الرجعية المتخلّفة، لذلك؛ فكثيراً ما يتمُّ تصوير الوثنيين على أنهم شعوب لا دينية، غارقة في التوحُّش، والسطحية، يعبدون كلَّ ما تعثَّرت به أقدامهم من الحجارة، والصخور المتناثرة، دون أن يكون لديهم أيّ عمق فكْري، يستطيعون - من خلاله - تفسير ما يقومون به.

ولكنَّ الحقيقة غير ذلك؛ فالوثنية منظومة فكرية فلسفية مترابطة، هي أكثر عمقاً في رمزيتها العقائدية من بعض الديانات العظمى المُسمَّاة بالسماوية، والتي يكنُّ لها الكثيرون احتراماً وتقديراً في زمننا هذا.

بل إننا نكاد نجزم بأن الوثنية - باختلاف أشكالها، وطقوسها، وأماكن عبادتها، ورموزها المادية، والمعنوية - ليست سوى دين واحد، تتفرَّع منه مذاهب فقهية عدَّة، وطُرُق طقوسية مختلفة، تؤدّي جميعها - في نهاية المطاف - لعبادة وثن واحد لا شريك له؛ هو «الأنثى» بمعناها التجريدي.

فالوثنية - بهذا المعنى - دين توحيدي، يرمي لعبادة إله واحد، يُرمَز له - غالباً - بقرص الشمس، بعَدِّه أبرز رموز القدرة الأنثوية العظمى، وما بقية الكواكب سوى شفعاء، تتهيكل منازلهم على شكل قنوات روحانية، تؤدّي - في النهاية - للتقرُّب من الإله الأعظم، رمز الألوهية السماوية الأنثوية.

وبذلك؛ تكون عشتار هي إحدى أفراد المنظومة العائلية الإلهية، تلك المنظومة السِّحْرية المُعقَّدة، التي تترابط فيما بينها، من خلال علاقة رياضية فَلَكية هي غاية في التعقيد، وتتفاعل قواها الروحية؛ لتُشكِّل تلك القدرة الهَرَمية اللامرئية من الروابط الكهرومغناطيسية المتداخلة هندسيّاً، والتي تربط قوى السماء الإلهية بقوى الطبيعة الأرضية برباط من الغموض الرمزي، والفلسفة الغنوصية الميتافيزيقية، التي لا يستطيع

فَكَّ رموزها، والغوص في بحار أسرارها، وسبر أغوار غموضها السِّحْري سوى العارفين من كَهَنتها، ومَنْ كان عنده علْم من الكتاب.

إن عشتار العراقية هي نفسها العزَّى في الجزيرة العربية، وهي نفسها أفروديت، وفينوس، في أوروبا، بل إن الآلهة الوثنية - التي كانت تُعبَد في الهند وفارس وآسيا الصغرى - هي نفسها التي مازالت تعبدها قبائل الزنج في أغوار إفريقيا حتى اليوم، مع اختلاف طقوسها ومُسمّياتها الرمزية، والطلاسم النَّصِّية التي تُتلَى في معابدها.

لقد كشف لنا الشهرستاني عن بعض من ذلك الترابط العجيب بين المعابد الوثنية التي كانت قائمة في بقاع جغرافية متباعدة، وفي أوساط مجتمعات ديموغرافية مختلفة، فقال: «ثم اعلَمْ أن البيوت [1] تنقسم إلى بيوت الأصنام، وإلى بيوت النيران، وقد ذكرنا المواضع التي كانت (فيها) بيوت النيران في مقالات المجوس. فأمَّا بيوت الأصنام التي كانت للعرب والهند؛ فهي البيوت السبعة المعروفة المشهورة، المَبْنِيَّة على السبع الكواكب. فمنها ما كانت فيه أصنام، فحُوِّلت إلى النيران، ومنها ما لم تُحوَّل. ولقد كان بين أصحاب الأصنام وبين أصحاب النيران مخالفات كثيرة، والأمر دُول فيما بينهم، وكان كلّ مَن استولى وقَهَر غيَّر البيت إلى مشاعر مذهبه، ودينه. فمنها بيت فارس على رأس جبل بأصفهان على ثلاثة فراسخ، كانت فيه أصنام، إلى أن

---

(1) المعابد.

أخرجها كشتاسب الملك لَمَّا تمجَّس، وجعله بيت نار. ومنها البيت الذي بمولتان من أرض الهند، فيه أصنام لم تُغيَّر، ولم تُبدَّل. ومنها بيت سدوسان من أرض الهند، فيه أصنام لم تُغيَّر، ولم تُبدَّل. ومنها بيت سدوسان من أرض الهند أيضاً، وفيه أصنام كبيرة كثيرة العجب، والهند يأتون البيتَيْن في أوقات من السنة حجّاً وقَصْداً إليهما. ومنها النوبهار، الذي بناه منوهجر بمدينة بلخ على اسم القمر، فلمَّا ظهر الإسلام خرَّبه أهل بلخ. ومنها بيت غمدان، الذي بمدينة صنعاء اليمن، بناه الضَّحَّاك على اسم الزهرة، وخرَّبه عثمان بن عفَّان، رضي الله عنه. ومنها بيت كاوسا، بناه كاووس الملك بناءً عجيباً على اسم الشمس بمدينة فرعانة، وخرَّبه المعتصم[1]».

لقد كانت عبادة الأنثى من الضخامة والسَّعَة لدرجة احتوائها وشمولها للكثير من المذاهب والشّعب والفِرَق الدينية، حتى انبثق منها من الفلسفات العقائدية ما يصعب حصره، بل إنها - ودون مبالغة - استطاعت أن تنفذ إلى داخل نصوص بعض الكُتُب السماوية المُقدَّسة؛ لتؤثِّر تأثيراً مُباشراً في بعض الديانات السماوية، وفي الكثير من الفلسفات، والعقائد، والمذاهب الفكرية، التي مازالت قائمة حتى يومنا هذا.

والأكثر دهشة من ذلك، أنّ هذه العبادة كانت تُمارَس حتى لدى الشعوب التي عاشت طيلة حياتها في عُزلة كاملة عن العالم، ولم يتمّ

(1) المِلَل والنِّحَل، 2- 234 .

اكتشافهم إلا في التاريخ المعاصر، كالهنود الحُمر، وسُكَّان أستراليا الأصليين، الذين كانوا يمارسون هذه العبادة بأشكال طوطمية، لا تختلف كثيراً عن الطوطمية التي كانت سائدةً في الهند، وفي جزيرة العرب، والتي ليست سوى مذهبٍ فلسفيٍّ مُتفرّع من الفلسفة الوثنية الأمّ، وهي عبادة الأنثى المُقدَّسة.

أمَّا في عصرنا الحالي؛ فمازالت عبادة الأنثى تُمارَس مع الكثير من طقوسها الوثنية القديمة، وطلاسمها، وتلاواتها، بل؛ وفلسفاتها، ومذاهبها الفكرية المختلفة.

فهي - أحياناً - يُطلَق عليها عبادة الشيطان[1]، وأحياناً؛ تتقمَّص لباس علْم الأبراج، والفَلَك، وقراءة الطالع، وكشف المستقبل، والكَهَانَة، والسِّحْر، وتتبلور في أقصى درجات تنظيمها المُؤسّساتي في ما يُسمَّى بالماسونية العالمية.

ويحاول الشهرستاني أن يقدّم لنا شرحاً تبسيطياً مختصراً للأصول الفلسفية والطقوس التَّعبُّدية لهذه الديانة بقوله:

«اعلمْ أن أصحاب الروحانيات لمَّا عرفوا أنْ لابد للإنسان من مُتوسّط، ولابد للمُتوسّط من أن يُرَى، فيُتَوَجَّه إليه، ويُتَقَرَّب به، ويُستفاد منه، فزعوا إلى الهياكل، التي هي السَّيَّارات السبع [2]، فتعرَّفوا - أولاً - (على) بيوتها، ومنازلها، وثانياً؛ مطالعها، ومغاربها، وثالثاً؛

---

(1) وأبرز مَنْ يُمثّلها الطائفة الإيزيديّة في العراق.

(2) الكواكب السَّيَّارة.

اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة، مُرتّبة على طبائعها، ورابعاً؛ تقسيم الأيام والليالي والساعات عليها، وخامساً؛ تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها. فعملوا الخواتيم، وتعلّموا العزائم، والدعوات، وعيَّنوا ليوم زُحل - مثلاً - يوم السبت، وراعوا فيه ساعته الأولى، وتختَّموا بخاتمه المعمول على صورته، وهيئته، وصنعته، ولبسوا اللباس الخاصَّ به، وتبخَّروا ببخوره الخاصّ، ودعوا بدعواته الخاصة به، وسألوا حاجتهم منه، الحاجة التي تُستدعَى من زُحل، من أفعاله وآثاره الخاصة به، فكان يقضي حاجتهم، ويحصل - في الأكثر - مرامهم. وكذلك رفع الحاجة التي تختصّ بالمُشتري، في يومه، وساعته، وجميع الإضافات التي ذكرنا إليه، وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب، وكانوا يُسمّونها أرباباً آلهة، والله - تعالى - هو ربّ الأرباب، وإله الآلهة. ومنهم مَنْ جعل الشمس إله الآلهة، وربّ الأرباب، وكانوا يتقرَّبون إلى الهياكل[1] تقرُّباً إلى الروحانيات، ويتقرَّبون إلى الروحانيات تقرُّباً إلى الباري تعالى، لاعتقادهم بأن الهياكل أبدان الروحانيات، ونسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا، فهم[2] الأحياء الناطقون بحياة الروحانيات، وهي تتصرَّف في أبدانها تدبيراً، وتصريفاً، وتحريكاً، كما نتصرَّف في أبداننا، ولاشكّ أن مَنْ تقرَّب إلى شخص فقد تقرَّب إلى روحه، ثم استخرجوا

---

(1) الكواكب.

(2) الهياكل.

من عجائب الحِيَل المُرتَّبة على عمل الكواكب ما كان يقضي منهم العجب، وهذه الطلسمات المذكورة في الكُتُب، والسِّحْر، والكَهَانة، والتنجيم، والتعزيم، والخواتيم، والصور كلّها من علومهم.

وأمَّا أصحاب الأشخاص[1]؛ فقالوا إذا كان لابد من مُتوسّط يُتوسَّل به، وشفيع يُتَشَفَّع إليه، والروحانيات- وإنْ كانت هي الوسائل -لكنَّا إذا لم نرها بالأبصار، ولم نخاطبها بالألسن، لم يتحقَّق التَّقرُّب إليها إلا بهياكلها[2]. ولكن الهياكل قد تُرَى في وقت، ولا تُرَى في وقت؛ لأن لها طلوعاً، وأفولاً، وظهوراً بالليل، وخفاءً بالنهار، فلم يصف لنا التَّقرُّب بها، والتَّوجُّه إليها، فلابد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا، نعكف عليها، ونتوسَّل بها إلى الهياكل، فنتقرّب بها إلى الروحانيات، ونتقرّب بالروحانيات إلى الله سبحانه وتعالى، فنعبدهم؛ ليُقرّبونا إلى الله زلفى فاتخذوا أصناماً أشخاصاً على مثال الهياكل السبعة، كلّ شخص في مقابله هيكل، وراعوا في ذلك جوهر الهيكل؛ أعني الجوهر الخاصّ به من الحديد وغيره، وصوَّروه بصورته على الهيئة التي تصدر أفعاله عنه، وراعوا في ذلك الزمان، والوقت، والساعة، والدرجة، والدقيقة، وجميع الإضافات النجومية من اتصال محمود يُؤثّر في نجاح المطالب التي تُستدعَى منه. فتقرَّبوا إليه في يومه، وساعته، وتبخَّروا بالبخور الخاصّ به، وتختّموا بخاتمه، ولبسوا

---

(1) الأصنام.

(2) كواكبها.

لباسه، وتضرّعوا بدعائه، وعزموا بعزائمه، وسألوا حاجتهم منه؛ فيقولون إنه كان يقضي حوائجهم، بعد رعاية هذه الإضافات كلّها، وذلك هو الذي أخبر التنزيل عنهم أنهم عَبَدَةُ الكواكب، والأوثان.

فأصحاب الهياكل هم عَبَدَةُ الكواكب؛ إذْ قالوا بإلهيّتها كما شرحنا، وأصحاب الأشخاص هم عَبَدَةُ الأوثان؛ إذْ سمّوها آلهة في مقابلة الآلهة السماوية، وقالوا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[1].

ويسترسل الشهرستاني في تتبُّعه للمذاهب الفكرية، والمدارس الفلسفية المنبثقة عن هذا الدِّين قائلاً:

«قالوا إن الصانع المعبود واحد، وكثير، أمَّا واحد؛ ففي الذات، والأول، والأصل، والأزل، وأمَّا كثير؛ فلأنه يتكثَّر[2] بالأشخاص في رأي العين، وهي المُدبّرات السبعة، والأشخاص الأرضية الخيِّرة العالمة الفاضلة[3]، فإنه يظهر بها، ويتشخَّص بأشخاصها، ولا تبطل وحدته في ذاته.

وقالوا هو أبدع الفلك، وجميع ما فيه من الأجرام، والكواكب، وجعلها مُدبّرات هذا العالم، وهم الآباء، والعناصر أمّهات، والمركبات

(1) المِلَل والنِّحَل، 2 - 49 .

(2) يتوزّع ويتفرّق.

(3) كالكَهَنَة والأولياء والأنبياء والملوك.

مواليد،[1]، والآباء أحياء ناطقون يؤدّون الآثار[2] إلى العناصر، فتقبلها العناصر في أرحامها، فيحصل من ذلك المواليد [3].

ثم من المواليد قد يتَّفق شخص مركّب من صفوها دون كدرها، ويحصل له مزاج كامل الاستعداد، فيتشخّص الإله به في العالم[4].

ثم إن طبيعة الكلّ تحدث في كلّ إقليم من الأقاليم المسكونة على رأس كلّ ستّة وثلاثين ألف سنة وأربعمئة وخمس وعشرين سنة[5]، زوجَيْن من كلّ نوع من أجناس الحيوانات، ذكراً، وأنثى، من الإنسان، وغيره، فيبقى ذلك النوع تلك المدة، ثم إذا انقضى الدور بتمامه انقطعت الأنواع، ونسلها، وتوالدها، فيبتدىء دور آخر، ويحدث قرن آخر من الإنسان والحيوان والنبات، وكذلك أبد الدهر.

---

(1) وهو الثالوث الوثني المُقدَّس.

(2) النطفة، أو المني، أو أيّ شكل من أشكال التلقيح، سواء كان حسِّيّاً، أو روحيّاً، تماماً كما نفخ الروح القُدُس في رحم مريم العذراء.

(3) البشر، وفي ذلك إشارة إلى أن جميع البشر هم أبناء الله بالجسد، كما يعتقد الوثنيون.

(4) وهذا الشخص عندهم هو النبي، أو الوَلِيّ، أو الكاهن، أو الملك، أو قد يكون هو المُخلّص، أو المُنقذ، أو ما يُسمَّى بالشخص المُختار.

(5) وهو هنا يتحدّث عن المدة الزمنية التي تستغرقها الحياة منذ بداية الخَلْق الأول، وحتى نهاية العالم، أو يوم القيامة. ويُوضّح اعتقادهم بأن الحياة عبارة عن دورات متتالية، فما إن تنتهي دورة بقيامة قيامتها، حتى تبدأ دورة حياة أخرى على الأرض من الصفر، وبالطريقة والتفاصيل نفسها، بل، وبالشخصيات نفسها، والمخلوقات التي وُجِدَتْ في دورة الحياة السابقة. وهذا ما يُسمَّى بعقيدة التناسخ؛ أيْ أن دورة الحياة الحالية ليست سوى نسخة طبق الأصل من الدورة السابقة.

قالوا وهذه هي القيامة الموعودة على لسان الأنبياء - عليهم السلام - وإلا؛ فلا دار سوى هذه الدار، ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾، ولا يتصوّر إحياء الموتى وبعث مَنْ في القبور﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾، وهم الذين أخبر التنزيل عنهم بهذه المقالة.

إنما نشأ أصل التناسخ والحلول من هؤلاء القوم، فإنّ التناسخ هو أن تتكرَّر الأكوار والأدوار إلى ما لا نهاية له، ويحدث في كلّ دور مثل ما حدث في الأول، والثواب والعقاب في هذه الدار، لا في دار أخرى، لا عمل فيها، والأعمال التي نحن فيها إنما هي أجزية على أعمال سَلَفَتْ منَّا في الأدوار الماضية، فالراحة والسرور والفرح والدعة التي نجدها هي مرتَّبة على أعمال البرّ التي سَلَفَتْ منّا في الأدوار الماضية، والغَمُّ والحزن والضنك والكلفة التي نجدها هي مُرتَّبة على أعمال الفجور التي سبقت منّا، وكذا كان في الأول، وكذا يكون في الآخر، والانصرام من كل وجه غير مُتصوَّر من الحكيم.

وأمَّا الحلول؛ فهو التَّشخُّص الذي ذكرناه، وربما يكون ذلك بحلول ذاته، وربما يكون بحلول جزء من ذاته، على قدر استعداد مزاج الشخص[1].

---

(1) الذي يحل الله في شخصه، سبحانه وتعالى عما يصفون.

وربما قالوا إنما تشخّص[1] بالهياكل السماوية كلها، وهو واحد[2]، وإنما يظهر فعله في واحد واحد، بقدر آثاره فيه، وتشخُّصه به. فكأنّ الهياكل السبعة أعضاؤه السبعة، وكأنّ أعضاءنا السبعة هياكله السبعة التي فيها يظهر، فينطق بلساننا، ويُبصر بأعيننا، ويسمع بآذاننا، ويقبض ويبسط بأيدينا، ويجيء ويذهب بأرجلنا، ويفعل بجوارحنا[3].

وزعموا أن الله - تعالى - أجلّ من أن يخلق الشرور والقبائح والأقذار والخنافس والحيات والعقارب، بل هي كلّها واقعة ضرورة عن اتصالات الكواكب سعادة ونحوسة، واجتماعات العناصر صفوة وكُدورة، فما كان من سعد وخير وصفو فهو المقصود من الفطرة، فيُنسَب إلى الباري - تعالى - وما كان من نحوسة وشرّ وكدر فهو الواقع ضرورة، فلا يُنسَب إليه؛ بل هي إمّا اتفاقيات وضروريات، وإمّا مستندة إلى أصل الشرور والاتصال المذموم.

أمّا الهياكل التي بناها الصابئة على أسماء الجواهر العقلية الروحانية وأشكال الكواكب السماوية؛ فمنها هيكل العلّة الأولى، ودونها هيكل العقل، وهيكل السياسة، وهيكل الصورة، وهيكل النفس مدوّرات الشكل. وهيكل زُحل مُسدَّس، وهيكل المُشتري مُثلَّث، وهيكل المرّيخ مُربَّع مستطيل، وهيكل الشمس مُربَّع، وهيكل الزهرة مُثلّث،

---

(1) الله .

(2) أيْ وحدة في تعدُّد، وتعدُّد في وحدة.

(3) يُلاحَظ مدى تطابق هذه العقيدة مع عقيدة الحلول ووحدة الوجود لدى الصوفية.

في جوف مُربَّع[1]، وهيكل عطارد مُثلَّث، في جوفه مُربَّع مستطيل، وهيكل القمر مثمن»[2].

اتخذت عبادة الهياكل أشكالاً عدّة، ووُضِعَتْ لها أسماء ورموز مختلفة باختلاف ثقافة الشعوب التي عَبَدَتْهَا، وباختلاف الأماكن والأحداث الدراماتيكية، التي تجلَّت - من خلالها - تلك الهياكل بقدراتها الإلهية، وتجسَّدت في صور أشخاص خارقين كما يدَّعي عُبَّادها.

وكان من أشهر تلك الهياكل وأكثرها تجلّيّاً في عالم البشر كوكب الزهرة، الذي تجسَّد في هيئة امرأة خارقة، شديدة الجمال، كاملة الأنوثة، عظيمة السِّحْر والفتنة.

ولم تكن تتجسَّد تلك الأنثى العظيمة إلا لتترك في عالم البشر رسالة سماوية، تتقاطر منها العِبَر والمعاني العميقة المختبئة بين الإشارات الرمزية لأحداثٍ ملحمية، تقود سمفونيّتها إلهة الحب والخصب.

ثم تختفي في نهايتها لتترك لكَهَنَتِهَا مهمَّة تسجيل تفاصيل تلك الملحمة على شكل نصوص قَصَصية مُقدَّسة، تُتلَى في معابدها، وتُرتَّل بكلّ خشوع أثناء تأدية الصلوات عند أقدام تماثيلها.

---

(1) وهي النجمة الخماسية.

(2) المِلَل والنِّحَل، 2- 54 . ويُلاحَظ هنا مدى تطابق بعض هذه الأشكال الهندسية مع بعض الرموز الدّينية حالياً، كنجمة داود السداسية، والنجمة الخماسية رمز الماسونية العالمية، والتي هي ذاتها شعار العَلَم الأمريكي، بل والصليب رمز المسيحية، الذي هو - في الحقيقة - رمز لهيكل الشمس، رباعي الشكل، كما سيأتي على تفصيل ذلك لاحقاً.

ولعلَّ من أشهر الملاحم المُقدَّسة تلك التي تجسَّدت فيها إلهة هيكل الزهرة، إلهة الخصب والحب «عشتار» للسومريين في العراق، وبالتحديد؛ في مدينة الوركاء عاصمة بلاد سومر.

تلك الملحمة التي خلَّد كَهَنَةُ عشتار الكثير من آياتها على شكل تماثيل مجسّمة، ولوحات فنية، ونقوش مسمارية محفورة في الصخر، ومخطوطات حُفِظَتْ بعناية؛ لدرجة لم تستطع عوامل التعرية أن تمحوَ معالمها.

دلَّت الكشوفات الأثرية في حوض الفرات أن الشعوب السومرية التي كانت تقطن تلك المنطقة قد مارست عبادة الأنثى منذ ما يزيد عن أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، عندما صوَّروا قوى السماء العظمى في صورة امرأة، تجسَّدت لهم بأشكال عدّة، وهياكل مختلفة.

كان هيكل عشتار - كما أسلفنا، بالفعل - هو أكثر الهياكل دغدغة لمشاعر الفنَّانين والأدباء، وإلهاماً لأحاسيسهم.

تلك المرأة الكاعب شديدة الجمال، ساحرة الحُسن، ممشوقة القوام، تتدفَّق الجاذبية من كلّ جزء في جسدها؛ لتُحطِّم بسِحْرِها قلوب عُشَّاقها، وتأسر رائحتها القوية، وصوتها العذب أفئدة كلّ ذُكُور الأرض.

امتلأ قلبها بالحب والحنان، وفاض جوفها بالأمومة والعطاء، فلا تلمس أقدامها الإلهيَّتَيْن أرضاً جرداء، حتى اخضرَّت، وأنبتت، وفاضت خيراتها عطاءً وإثماراً.

إنْ بكتْ أمطرت السماء حُزناً لحزنها، وإنْ ضحكت أشرقت الشمس دفئاً وحناناً. إنْ غضبت أجدبت الأرض، وأمسكت خيراتها، وإنْ فرحت ابتهجت الدنيا بأسرها ضاحكة لها.

وقد حِيْكَتْ حول عشتار الكثيرُ من القَصَص الرمزية، والأساطير المُقدَّسة، التي كانت بمثابة أسفار مُقدَّسة، تتطلَّب تلاوتها طقوساً تشبه الصلاة والقنوط، فهي لم تكن حكايا للتسلية، بقدر كونها آيات منزلة، ترمز كلماتها إلى نوع من القوانين الإلهية، والشرائع السماوية، والرموز الغنوصية المُقدَّسة، التي لا يفهمها سوى كَهَنَتُهَا، وأنبياؤها.

كانت مدينة الورقاء العراقية هي مركز عبادة عشتار، وكان معبدها الأمّ مبنيّاً على شكل فرج امرأة؛ حيث إنه كان يرمز للإنجاب والإخصاب والخَلْق الأول والإثمار والعطاء.

أمّا الطقوس التعبدية؛ فكانت تدور حول الاتصال الجنسي بين كَهَنَة وكاهنات المعبد، وبين المُصلّين والمُصلِّيات، كرمز للاتحاد الجسدي والروحي بين الإنسان وإلهه. وهو ما سُمِّي - فيما بعد - بالبغاء المُقدَّس، ولكنه - في ذلك الوقت - لم يكن يُعدُّ نوعاً من البغاء، أو الزنى، فالعملية الجنسية كانت من القُدْسية بمكان يجعلها أرفع درجات الصلاة والعبادة، فالخليقة بأكملها لم تُوجَد إلا من خلال التلاقح الجنسي؛ بل إن جميع كواكب السماء - بما فيهنَّ كوكب الأرض - هنَّ بنات للشمس، أنجبتهنَّ عن طريق اتصالها الجنسي بالقمر.

وهكذا كانت قمّة الخشوع عند المُتعبّدين عندما تصل بهم عملية الجماع إلى ذروة الرعشة الجنسية، التي تسبق تدفُّق الماء، لتبدو لهم تلك الرعشة وكأنها اتصال روحي قد تمَّ بالفعل مع إلهة الجنس والتناسل «عشتار» عن طريق تجلّيها، وتلبّسها، وتجسُّدها في جسد الأنثى ساعة شروعها في سَحْب ماء الحياة من جوف الرجل.

تُصوِّر لنا الأساطير السومرية كيف تجلَّت إلهة الزهرة عشتار (أو عينانا كما كانت تُسمَّى عند السومريين القدماء) في أجمل صورة امرأة يمكن أن تراها العين، وتجسَّدت للملك «جلجامش» ملك الورقاء تراوده عن نفسها، بعد أن جَذَبَتْهَا هيئته الفحولية، ومنظره الرجولي الأخَّاذ، وهو عائد من الغزو.

ولكن جلجامش فاجأها، وفاجأ العالم بأسره، عندما تماسك أمامها، وسيطر على مشاعره بطريقة لم يستطع قبله رجل أن يفعلها، فرفض عرضها، وردَّ عليها بأبيات خالدة؛ قال فيها:

ما أنتِ إلا موقدٌ سرعانَ ما تخمدُ نارُه في البرد
أنتِ بابٌ لا ينفع في صَدِّ ريحٍ عاصفة
أنتِ قصرٌ يتحطَّمُ في داخله الأبطال
أنتِ بئرٌ تبتلع غطاءها
أنتِ حفنةُ قير تُلوِّث حاملها
أنتِ قربةُ ماءٍ تُبلِّل صاحبها
أنتِ حذاء تقرص قَدَم مُنتعلها

فأيٌّ من عُشَّاقكِ أحببتِ إلى الأبد

وأيٌّ من رُعاتكِ مَنْ طاب لكِ على الدوام

تعالي أُسمِّ لكِ عُشَّاقك

وبعدما أحببتِ طير الشقرنق المُرقَّط

ضَرَبْتِهِ وكسرتِ جناحَهُ

وها هو قابع في البساتين يصيح يا جناحي

ثم أحببتِ الأسدَ الكاملَ القوة

ولكنْ؛ حفرتِ له سبع وسبع حُفَر

وأحببتِ الحصان المجلي في المعركة والسباق

ولكنكِ كتبتِ عليه الجري سبعة فراسخ مضاعفة

وحكمتِ عليه بالعدو شوط سبع ساعات مضاعفة

وقضيتِ عليه أنْ لا يَرِدَ الماء إلا بعد أن يُعكِّره

ومن ثمَّ؛ أحببتِ راعي القطيع

الذي كان يُكدِّس لكِ أرغفةَ الخبز المُحمَّصة على الدوام

ويذبحُ لكِ الجداء كلّ يوم

ولكنكِ ضَرَبْتِهِ، وَمَسَخْتِهِ ذئباً

حتى صار رفاقه في الرعي يطاردونه

وصارت كلابه تعضُّ فخذَيْه

فإذا ما أَحْبَبْتِنِي فإنكِ ستجعلينني مثلهم

ستجعلينني مثلهم [1]

---

(1) عشتار ومأساة تموز: فاضل عبد الواحد علي.

تكشف لنا هذه الأبيات الخالدة عن السّرّ الحقيقي الذي تتمحور حوله عقيدة عبادة الأنثى، إنه القوة التدميرية الخارقة، التي تتمتّع بها شخصيتها، بكلّ ما فيها من غموض وتناقض. فخلف تلك الرقّة والدلال، تختبئ قوى العنف والتدمير، ومن وراء ذلك المَلْمَس الحريري الناعم يكمن سرّ الخشونة والقسوة، وبين جنبات ذلك الضعف الظاهر يستتر وحش الفتك والانتقام، ومن خلال ذلك الصوت العازف بالمسكنة والخضوع، ينفجر زئير الحقد والغدر والخيانة، بل ومن أشعّة تلك العينَيْن الناعستَيْن تنبثق موجات السِّحْر الأسود الآسر والمُحطّم لأكثر القلوب قسوة وشراسة.

والرجل ضحية في جميع الأحوال، إن انساق خلف مشاعره، وسقط في عشق الأنثى، وخضع لجبروت سِحْرها، وسجد لقسوة جاذبيتها، كان مصيره الهلاك والفناء والذلّ والاستعباد، وعاش بقية عمره رقيقاً تحت أقدامها، يعمل في الحقل؛ ليُطعمها، ويخوض غمار المعارك، ويُلقي بنفسه في أحضان الموت؛ ليحميها، ويدافع عنها. إنْ قلَّ ماله هجرتْهُ، وإنْ خارت قوته رَمَتْهُ في سلّة المهملات؛ لتبحث عن مَنْ هو أقدر منه على حمايتها، وتوفير متطلّباتها. أمّا إنْ قرّر العيش مُتحرّراً من العبودية لجبروتها، فإنه يكون قد حَكَمَ على نفسه بالحرمان من أعظم متعة يمكن أن يتحصّل عليها ذَكَر، متعة حبّها، وقربها، وعشقها، والفناء في شخصها، تلك المتعة التي يُفضِّل معظم الذُّكُور الموتَ على الحرمان منها، تماماً كَذَكَر النَّحْل والعنكبوت. فالذَّكَر - في جميع الأحوال - لا يستطيع أن يعيش إلا عابداً لها، ساجداً

تحت أقدامها، أو مُعذَّباً محطّماً مقهوراً محروماً من لذَّة قربها، ومتعة عِشْقها، وحبّها. أمّا هي؛ فقد خُلِقَتْ لتكون إلهة معبودة.

ولو تتبَّعنا معظم الأساطير التي نُسِجَتْ حول الأنثى المُقدَّسة، والطقوس والمراسم التَّعبُّدية التي مُورست في معابدها، لوجدنا أن جانب الخوف في عبادة الأنثى يطغى كثيراً على جانب الرجاء.

فبالرغم من تلك الصفات الأمومية الحانية التي تتجلَّى - بشكل خرافي - في علاقة الأنثى بأبنائها، إلا أن أساطيرها لم تتطرَّق لذلك الجانب قدر تركيزها على جانب الإغواء الجنسي، والمكر، والدهاء الأنثوي، وقسوة الخيانة، والغدر، التي أعملت في عُشَّاقها من الرجال صنوف التعذيب والاضطهاد، في سبيل استعبادهم، والسيطرة عليهم.

ولعلّ الأساطير كانت تتعمّد إظهار هذا الجانب، حتى أثناء حديثها عن الصفات الأمومية للأنثى المُقدَّسة، بل إن أمومة الأنثى وشدّة حنوها على أطفالها من شأنها أن تكون دافعاً لأقسى وأشرس أشكال العنف الأسري الذي قد تمارسه الأنثى ضدّ زوجها.

وفي سبيل راحة أبنائها - بل ورفاهيتهم الكمالية - قد تُكلِّف الأنثى زوجَهَا من الأعباء والأحمال ما من شأنه أن يقضي على كلّ ما تبقّى من طاقته، ويدمّر ما كان يحتفظ به من عزّته، وكرامته، بل ويُلغي مشاعره ورجولته، حتى إذا أصبح جثّة هامدة، عندها؛ لا تتورَّع لحظة في التخلّي عنه، والبحث عن عبد آخر تستخدمه في القيام على أبنائها، ورعايتهم.

وها هي التوراة تُسطِّر لنا كيف أذلَّت الأنثى نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام، عندما دفعت به زوجته سارة لإلغاء مشاعره، والتخلّي عن ابنه وفلذة كبده إسماعيل في سبيل رفاهية ابنها إسحاق«ورأت سارةُ ابنَ هاجر المصرية الذي ولدتْهُ لإبراهيم يمزح. فقالت لإبراهيم: اطردْ هذه الجارية، وابنها؛ لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق. فقبح الكلام جداً في عينَيْ إبراهيم لسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينَيْكَ من أجل الغلام، ومن أجل جاريتكَ. في كلّ ما تقول لكَ سارة اسمعْ لقولها؛ لأنه بإسحق يُدعَى لكَ نسل. وابن الجارية - أيضاً - سأجعله أمة؛ لأنه نسلكَ. فبكَّر إبراهيم صباحاً، وأخذ خبزاً، وقربة ماء، وأعطاهما لهاجر، واضعاً إياهما على كتفها، والولد، وصرفها. فمضت وتاهت في برية بئر سبع. ولمَّا فرغ الماء من القربة، طرحت الولدَ تحت إحدى الأشجار. ومضت، وجلست مقابله، بعيداً نحو رمية قوس؛ لأنها قالت: لا أنظر موت الولد. فجلستْ مقابله، ورفعت صوتها، وبكت. فسمع اللهُ صوتَ الغلام. ونادى ملاكُ الله هاجرَ من السماء، وقال لها: مالكِ؛ يا هاجر؟ لا تخافي؛ لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو»[1].

(1) سِفْر التكوين، 21 .

أَسْتِيْر:

ولم تنجُ التوراة من الاحتفاء بإلهة الخصب والجنس في سِفْر كامل من أسفارها أَسْمَتْهُ سِفْر أَسْتِيْر، لتستعير التوراة في هذا السِّفْر شخصية عشتار، وتُصوّرها على هيئة فتاة يهودية ذات صفات خارقة تُدعَى «أَسْتِيْر» تتمازج في شخصيتها آيات الحُسن والجمال مع جبروت الخبث والدهاء والمكر الأنثوي، الذي استطاعت - من خلاله - السيطرة على مملكة الشرق بأكملها، لتُحوِّل الإمبراطورية الفارسية عن بكرة أبيها إلى دولة يهودية صرفة، بعد أن أسرت فؤاد الإمبراطور الفارسي، وامتلكت قلبه وكيانه بسِحْرها الأنثوي الناعم، لتجعله بإشارة من إصبعها يُمارس في حقٍّ شعبه من غير اليهود مذابح هولوكوستية غاية في الوحشية.

«وحدث في أيام أَحَشْوِيرُوش. هو أَحَشْوِيرُوش الذي ملك من الهند إلى كوش على مئة وسبع وعشرين كورة. أنه في تلك الأيام حين جلس الملك أَحَشْوِيرُوش على كرسي مُلكه، الذي في شُوشَن القصر، في السنة الثالثة من مُلكه، عمل وليمة لجميع رؤسائه وعبيده، جيش فارس ومادي، وأمامه شرفاء البلدان ورؤساؤها حين أظهر غنى مجد مُلكه ووقار جلال عظمته..وليمة سبعة أيام في دار جنة قصر الملك...

في اليوم السابع لَمَّا طاب قلبُ الملك بالخمر، قال لِمَهُومَان وبِزْثَا وحَرْبُونَا وبِغْثَا وأَبَغْثَا وزِيْثَار وكَرْكَس الخصيان السبعة، الذين كانوا يخدمون بين يدَي الملك أَحَشْوِيرُوش أن يأتوا بوَشْتِي الملكة إلى أمام

الملك بتاج المُلك؛ ليُري الشعوب والرؤساء جمالها؛ لأنها كانت حَسَنة المنظر. فأبت الملكة وَشْتِي أن تأتي حسب أمر الملك عن يد الخصيان، فاغتاظ الملك جداً، واشتعل غضبه فيه... فقال مَمُوكَان أمام الملك والرؤساء: ليس إلى الملك وحده أذنبتْ وَشْتِي الملكة، بل إلى جميع الرؤساء وجميع الشعوب الذين في كلّ بلدان الملك أَحَشْوِيرُوش؛ لأنه سوف يبلغ خبر الملكة إلى جميع النساء حتى يحتقر أزواجهنَّ في أعينهنَّ.........فإذا حَسُنَ عند الملك، فليخرج أمر مَلَكي من عنده، وليكتب في سنن فارس ومادي فلا يتغيّر، أنْ لا تأت وَشْتِي إلى أمام الملك أَحَشْوِيرُوش، وليُعط الملكُ مُلكَهَا لَمَنْ هي أحسن منها... فَحَسُنَ الكلام في أعين الملك والرؤساء، وعمل الملك حسب قول مَمُوكَان. وأرسل كُتُباً إلى كلّ بلدان المُلك، وإلى كلّ بلاد حسب كتابتها، وإلى كلّ شعب حسب لسانه، ليكون كلّ رجل مُتسلِّطاً في بيته. ويتكلَّم بذلك بلسان شعبه... وليُوكل الملك وكلاء في كلّ بلاد مملكته ليجمعوا كل الفتيات العذارى الحسنات المنظر إلى شُوشَن القصر، إلى بيت النساء، إلى يد هَيْجَاي خصي الملك حارس النساء، وليُعطينَ أدهان عطرهنَّ. والفتاة التي تحسن في عينَي الملك فلتملكْ مكان وَشْتِي. فَحَسُنَ الكلام في عينَي الملك، فعمل هكذا.

كان في شُوشَن القصر رجل يهودي اسمه مُرْدَخَاي ابن يائير بن شَمْعِي ابن قَيْس، رجل يميني، قد سُبي من أورشليم مع السبي الذي

سُبي مع يَكُنْيَا ملك يهوذا، الذي سباه نَبُوخَذنصَّر ملـك بابـل. وكـان مربِّياً لـهَدَسَّة ؛ أيْ «أَسْتِيْر» بنت عمّه؛ لأنه لم يكن لها أب، ولا أم.

وكانت الفتاة جميلة الصورة، وحسنة المنظر، وعند موت أبيها وأمها اتخذها مُرْدَخَاي لنفسه ابنة. فلمّا سمع كلام الملك، وأَمْرَهُ، وجُمعت فتيات كثيرات إلى شُوشَن القصر إلى يد هَيْجَاي، أُخذت أَسْتِيْر إلى بيت الملك، إلى يد هَيْجَاي حارس النساء.

وَحَسُنَت الفتاة في عينَيْه، ونالت نعمة بين يدَيْه، فبادر بادهان عطرها وأنصبتها ليُعطيها إياها مع السبع الفتيات المختارات، لتُعطى لها من بيت الملك. ونقلها مع فتياتها إلى أحسن مكان في بيت النساء. ولم تخبر أَسْتِيْر عن شعبها وجنسها؛ لأن مُرْدَخَاي أوصاها أنْ لا تُخبر... ولما بلغت نوبة فتاة ففتاة للدخول إلى الملك أَحَشْوِيرُوش، بعد أن يكون لها حسب سُنَّة النساء اثنا عشر شهراً؛ لأنه هكذا كانت تكمل أيام تعطرهنَّ، ستة أشهر بزيت المرّ وستة أشهر بالأطياب، وأدهان تعطر النساء.

وهكذا كانت كلّ فتاة تدخل إلى الملك. وكلّ ما قالت عنه أُعطي لها للدخول معها من بيت النساء إلى بيت الملك. في المساء، دخلت، وفي الصباح، رجعت إلى بيت النساء الثاني، إلى يد شَعَشْغَاز خصي الملك حارس السراري. لم تعد تدخل إلى الملك إلا إذا سُرَّ بها الملك، ودُعِيَتْ باسمها.

ولَمَّا بلغت نوبة أَسْتِيْر ابنة أَبِيْجَائِل عمّ مُرْدَخَاي الذي اتخذها لنفسه ابنة للدخول إلى الملك، لم تطلب شيئاً إلا ما قال عنه هَيْجَاي خصي الملك حارس النساء. وكانت أَسْتِيْر تنال نعمة[1] في عينَيْ كل مَنْ رآها.

وأُخِذَتْ أَسْتِيْر إلى الملك أَحَشْوِيرُوش، إلى بيت مُلكه في الشهر العاشر، هو شهر طِيبيت في السنة السابعة لمُلكه. فأحبَّ الملكُ أَسْتِيْرَ أكثر من جميع النساء، ووجدتْ نعمة وإحساناً قدّامه أكثر من جميع العذارى، فوضع تاج المُلك على رأسها، وملَّكها مكان وَشْتِي. وعمل الملكُ وليمةً عظيمة لجميع رؤسائه وعبيده، وليمة أَسْتِيْر. وعمل راحة للبلاد، وأعطى عطايا حسب كرم الملك....

بعد هذه الأمور، عظَّم الملك أَحَشْوِيرُوش هَامَان بن هَمَدَاثَا الأَجَاجِيّ، ورقَّاه، وجعل كرسيّه فوق جميع الرؤساء الذين معه. فكان كلّ عبيد الملك الذين بباب الملك يجثون ويسجدون لهَامَان؛ لأنه هكذا أوصى به الملك.

وأَمَّا مُرْدَخَاي[2]؛ فلم يجثُ، ولم يسجدْ. فقال عبيد الملك الذين بباب الملك لمُرْدَخَاي: لماذا تتعدَّى أمر الملك؟!.

---

(1) إعجاباً ورضى.

(2) عمّ أَسْتِيْر.

ولَمَّا رأى هَامَان أن مُرْدَخَاي لا يجثو، ولا يسجد له، امتلأ هَامَان غضباً. وازْدُرِيَ في عينَيْه أنْ يمدَّ يده[1] إلى مُرْدَخَاي وحده[2]؛ لأنهم أخبروه عن شعب مُرْدَخَاي. فطلب هَامَان أنْ يهلك جميع اليهود الذين في كلّ مملكة أَحَشْوِيرُوش، شعب مُرْدَخَاي... فقال هَامَان للملك أَحَشْوِيرُوش: إنه موجود شعب ما مُتشتّت ومُتفرّق بين الشعوب في كلّ بلاد مملكتك، وسُننهم مغايرة لجميع الشعوب، وهم لا يعملون سُنن الملك، فلا يليق بالملك تَرْكهم، فإذا حَسُنَ عند الملك فليكتب أنْ يُبادوا، وأنا أزن عشرة آلاف وزنة من الفضة في أيدي الذين يعملون العمل؛ ليُؤتى بها إلى خزائن الملك. فنزع الملكُ خاتَمَهُ من يده، وأعطاه لهَامَان بن هَمَدَاثَا الأَجَاجِيّ عدوّ اليهود. وقال الملك لهَامَان: الفضّة قد أُعطيتْ لكَ، والشعب أيضاً، لتفعل به ما يحسن في عينَيْكَ. فدُعي كُتَّاب الملك في الشهر الأول في اليوم الثالث عشر منه، وكُتب حسب كل ما أمر به هَامَان إلى مَرَازِبَة الملك، وإلى وُلاة بلاد فبلاد، وإلى رؤساء شعب فشعب، كل بلاد ككتابتها وكل شعب كلسانه، كتب باسم الملك أَحَشْوِيرُوش وختم بخاتم الملك. وأُرسلت الكتابات بيد السُّعاة إلى كلّ بلدان الملك لإهلاك وقَتْل وإبادة جميع اليهود، من الغلام

(1) بالسوء.

(2) أيْ أن الانتقام من مردخاي وحده لا يكفي، فرفضه السجود لهَامَان إهانة لا تُغتفَر.

إلى الشيخ والأطفال والنساء في يوم واحد، في الثالث عشر من الشهر الثاني عشر؛ أيْ شهر آذار، وأن يسلبوا غنيمتهم».

تورَّط اليهود ورطة ما بعدها ورطة، فالمملكة بأسرها - الآن - ضدهم. فقد صدر عليهم حُكْم الإعدام، بل الإبادة الكاملة، بطريقة هي أبشع بكثير من ما يدَّعون أنهم تعرَّضوا له على أيدي نازيِّي هتلر.

رفض مُرْدَخَاي أن يسجد للوزير هَامَان، فَحَكَمَ على الأقلِّيَّة اليهودية قاطبة بالفناء التامّ، وحدّد موعد تنفيذ الحُكْم في الثالث عشر من شهر آذار، الذي هو آخر شهر في السنة الفارسية. وهذا التأريخ يجب أن نتذكّره جيداً؛ لأنه تأريخ مُهمّ عند عَبَدَة الإلهة عشتار، الأنثى المُقدَّسة؛ حيث سنأتي على تفصيل أهميته لاحقاً.

وفي خضمِّ تلك الورطة العُظمى تتجلَّى القوة الخارقة للأنثى المُقدَّسة، ويتفتّق الحجاب عن قدراتها الخيالية، التي استطاعت أن تعكس اتجاه القدر مئة وثمانين درجة كاملة. ظهرت أَسْتِيْر - تماماً - كما يظهر «سوبرمان»؛ لتُنقذ شعباً كاملاً من الهلاك، وهي لا تملك سوى سلاحاً واحداً فقط، سلاح «الإغراء» الذي أثبت تفوُّقه على جميع الأسلحة الرجالية؛ قديمها وحديثها.

أمرنا النبي - ﷺ - ألا نُكذِّب أحاديث أهل الكتاب، ولا نُصدّقها، فنحن لا نعلم أيّ الأسفار أصابه التحريف، وما هو مقدار التحريف الذي أصاب كلّ سِفْر منها على حدة. ولكنَّ سِفْر أَسْتِيْر هذا هو أكثر

الأسفار المشكوك في صحَّة نسبتها إلى الله - عزَّ وجلَّ - سنداً ومَتْناً.

فأمَّا من ناحية السَّنَد؛ فهو السِّفْر الوحيد الذي لم يُعثَر على نسخة منه في مخطوطات وادي قمران، تلك المخطوطات التي يُعوِّل أهل الكتاب عليها كثيرا في إثبات عدم تحريف كتابهم.

وأمَّا من ناحية المتن؛ فيكفي أن نعرف بأن شخصية أَسْتِيْر التوراتية، التي يدور الحديث عنها، هي نسخة كربونية من إلهة البابليين العظمى «عشتار»، وأن قصة أَسْتِيْر المزعومة قد دارت أحداثها في زمن النَّفْي البابلي، عندما كان اليهود يعيشون أقلِّيَّة منبوذة بين ظهراني البابليين.

وبالرغم من ذلك، نجد أن أَسْتِيْر هي أكثر الشخصيات التوراتية تأثيراً في الثقافة الغربية النسائية.

وعلى كلّ حال؛ دعونا نُكمل القصة لنر ماذا فعلت أَسْتِيْر:

«وفي اليوم الثالث لبست أَسْتِيْر ثيابا مَلَكية، ووقفت في دار بيت الملك الداخلية، مقابل بيت الملك، والملك جالس على كرسي مُلكه في بيت المُلك مقابل مدخل البيت. فلمَّا رأى الملكُ أَسْتِيْرَ الملكة واقفة في الدار، نالت نعمة في عينَيْه، فمدَّ الملكُ لأَسْتِيْر قضيبَ الذهب الذي بيده، فدنت أَسْتِيْر، ولمست رأس القضيب. فقال لها الملك: ما لكِ؛ يا أَسْتِيْر الملكة؟ وما هي طلبتكِ؟ إلى نصف المملكة تُعطَى لكِ. فقالت أَسْتِيْر: إنْ حَسُنَ عند الملك، فليأتِ الملك وهَامَان اليوم إلى الوليمة

التي عملتها له. فقال الملك: أسرعوا بهَامَان؛ ليفعل كلام أَسْتِيْر.فأتى الملك وهَامَان إلى الوليمة التي عملتها أَسْتِيْر. فقال الملك لأَسْتِيْر عند شُرْب الخمر: ما هو سُؤلكِ، فيُعطَى لكِ؟ وما هي طلبتكِ؟ إلى نصف المملكة تُقضَى. فأجابت أَسْتِيْر، وقالت: إن سُؤلي وطلبتي إنْ وجدت نعمة في عينَي الملك، وإذا حَسُنَ عند الملك أنْ يُعطى سُؤلي، وتُقضى طلبتي، أن يأتي الملك وهَامَان إلى الوليمة التي أعملها لهما، وغداً أفعل حسب أمر الملك. فخرج هَامَان في ذلك اليوم فرحاً وطيّب القلب. ولكنْ؛ لما رأى هَامَان مُرْدَخَاي في باب الملك، ولم يقم، ولا تحرَّك له، امتلأ هَامَان غيظاً على مُرْدَخَاي. وتجلَّد هَامَان، ودخل بيته، وأرسل، فاستحضر أحبَّاءه، وزَرَش زوجته. وعدَّد لهم هَامَان عَظَمَةَ غناه، وكثرة بنيه، وكلّ ما عظَّمه الملك به، ورقَّاه على الرؤساء، وعبيد الملك. وقال هَامَان: حتى إن أَسْتِيْر الملكة لم تدخل مع الملك إلى الوليمة التي عملتها إلا إياي، وأنا غداً - أيضاً - مدعو إليها مع الملك. وكلّ هذا لا يساوي عندي شيئا كلّما أرى مُرْدَخَاي اليهودي جالساً في باب الملك. فقالت له زَرَش زوجته وكلّ أحبائه: فليعملوا خشبة ارتفاعها خمسون ذراعاً، وفي الصباح قل للملك أن يصلبوا مُرْدَخَاي عليها، ثم ادخل مع الملك إلى الوليمة فرحاً. فَحَسُنَ الكلامُ عند هَامَان، وعمل الخشبة... فجاء الملك وهَامَان ليشربا عند أَسْتِيْر الملكة. فقال الملك لأَسْتِيْر في اليوم الثاني - أيضاً - عند شرب الخمر: ما هو سُؤلكِ يا أَسْتِيْر الملكة، فيُعطى لكِ؟ وما هي طلبتكِ؟ ولو إلى نصف المملكة

تُقضَى. فأجابت أَسْتِيْر الملكة، وقالت: انْ كنتُ قد وجدتُ نعمةً في عينيكَ، أيها الملك، وإذا حَسُنَ عند الملك فلتُعطَ لي نفسي بسُؤلي وشعبي بطلبتي؛ لأننا قد بعنا أنا وشعبي للهلاك والقتل والإبادة، ولو بعنا عبيداً وإماء لكنتُ سكتُّ، مع أن العدوَّ لا يُعوّض عن خسارة الملك. فتكلَّم الملك أَحَشْوِيرُوش، وقال لأَسْتِيْر الملكة: مَنْ هو؟ وأين هو هذا الذي يتجاسر بقلبه على أن يعمل هكذا؟ فقالت أَسْتِيْر: هو رجل خصم وعدوّ، هذا هَامَان الردي. فارتاع هَامَان أمام الملك والملكة. فقام الملك بغيظه عن شرب الخمر إلى جنة القصر، ووقف هَامَان ليتوسّل عن نفسه إلى أَسْتِيْر الملكة؛ لأنه رأى أن الشرّ قد أُعِدَّ عليه من قِبَل الملك. ولمَّا رجع الملك من جنة القصر إلى بيت شرب الخمر، وهَامَان متواقع على السرير الذي كانت أَسْتِيْر عليه، قال الملك: هل - أيضاً - يكبس الملكة معي في البيت. ولمَّا خرجت الكلمة من فم الملك، غطُّوا وجه هَامَان. فقال «حَرْبُونا» واحد من الخصيان الذين بين يدَي الملك: هوذا الخشبة - أيضاً - التي عملها هَامَان لمُرْدَخَاي، الذي تكلّم بالخير نحو الملك، قائمة في بيت هَامَان، ارتفاعها خمسون ذراعاً. فقال الملك: اصلبوه عليها. فصلبوا هَامَان على الخشبة التي أعدّها لمُرْدَخَاي. ثم سكن غضب الملك. في ذلك اليوم أعطى الملك أَحَشْوِيرُوش لأَسْتِيْر الملكة بيتَ هَامَان عدوّ اليهود. وأتى مُرْدَخَاي إلى أمام الملك؛ لأن أَسْتِيْر أخبرتْهُ بما هو لها. ونزع الملك خاتمه الذي أخذه من هَامَان، وأعطاه لمُرْدَخَاي، وأقامت أَسْتِيْر

مُرْدَخَاي على بيت هَامَان. ثم عادت أَسْتِيْر، وتكلَّمت أمام الملك، وسقطت عند رجلَيْه، وبكت، وتضرَّعت إليه أنْ يزيل شرّ هَامَان الأَجَاجِيّ، وتدبيره الذي دبَّره على اليهود. فمدَّ الملكُ لأَسْتِيْر قضيبَ الذهب، فقامت أَسْتِيْر، ووقفت أمام الملك، وقالت: إذا حَسُنَ عند الملك، وإنْ كنتُ قد وجدتُ نعمة أمامه، واستقام الأمر أمام الملك، وحَسُنْتُ أنا لديه، فليكتب لكي تردَّ كتابات تدبير هَامَان بن هَمَدَاثَا الأَجَاجِيّ التي كتبها لإبادة اليهود الذين في كلّ بلاد الملك؛ لأنني كيف أستطيع أن أرى الشر الذي يصيب شعبي، وكيف أستطيع أن أرى هلاك جنسي. فقال الملك أَحَشْوِيرُوش لأَسْتِيْر الملكة ومُرْدَخَاي اليهودي: هوذا قد أعطيتُ بيت هَامَان لأَسْتِيْر، أمَّا هو؛ فقد صلبوه على الخشبة من أجل أنه مدَّ يده إلى اليهود. فاكتبا أنتما إلى اليهود ما يحسن في أعينكما باسم الملك، واختماه بخاتم الملك؛ لأن الكتابة التي تُكتَب باسم الملك وتُختَم بخاتمه لا تُردُّ. فدُعي كُتَّاب الملك في ذلك الوقت، في الشهر الثالث، أيْ شهر سِيْوَان[1] في الثالث والعشرين منه، وكتب حسب كلّ ما أمر به مُرْدَخَاي إلى اليهود وإلى المَرَازِبَة والوُلاة ورؤساء البلدان التي من الهند إلى كُوش، مئة وسبع وعشرين كورة، إلى كلّ كورة بكتابتها، وكلّ شعب بلسانه، وإلى اليهود بكتابتهم، ولسانهم. فكتب باسم الملك أَحَشْوِيرُوش، وختم بخاتم الملك، وأرسل

(1) يونيو.

رسائل بأيدي بريد الخيل، رُكّاب الجياد والبغال بني الرَّمَك، التي بها أعطى الملك اليهود في مدينة فمدينة أن يجتمعوا، ويقفوا لأجل أنفسهم، ويهلكوا، ويقتلوا، ويبيدوا قوة كلّ شعب وكورة تضادهم، حتى الأطفال والنساء، وأن يسلبوا غنيمتهم...

وخرج مُرْدَخَاي من أمام الملك بلباس مَلَكي إِسْمَانْجُونِيّ وأبيض، وتاج عظيم من ذهب، وحُلَّة من بَزٍّ وأَرْجُوَان. وكانت مدينة شُوشَن مُتهلّلة وفرحة. وكان لليهود نور وفرح وبهجة وكرامة. وفي كلّ بلاد ومدينة، كل مكان وصل إليه كلام الملك، وأمره، كان فرح وبهجة عند اليهود، وولائم ويوم طيب. وكثيرون من شعوب الأرض تهوَّدوا؛ لأن رعب اليهود وقع عليهم.. اجتمع اليهود في مُدُنهم في كل بلاد الملك أَحَشْوِيرُوش ليمدّوا أيديهم إلى طالبي أذيّتهم، فلم يقف أحد قدّامهم؛ لأن رعبهم سقط على جميع الشعوب. وكلّ رؤساء البلدان والمرازبة والولاة وعمال الملك ساعدوا اليهود؛ لأن رعب مُرْدَخَاي سقط عليهم... فضرب اليهود جميع أعدائهم ضربة سيف وقتل وهلاك، وعملوا بمبغضيهم ما أرادوا. وقتل اليهود في شُوشَن القصر، وأهلكوا خمس مئة رجل. وفَرْشَنْدَاثَا، ودَلْفُون، وأَسْفَاثَا، وفُورَاثَا، وأَدَلْيَا، وأَرِيدَاثَا، وفَرْمَشْتَا، وأَرِيسَاي، وأَرِيدَاي، ويِزَاثَا، عشرة بني هَامَان بن هَمَدَاثَا عدوّ اليهود قتلوهم، ولكنهم لم يمدّوا أيديهم إلى النهب. في ذلك اليوم أُتي بعدد القتلى في شُوشَن القصر إلى بين يدَي الملك. فقال الملك لأَسْتِيرْ الملكة في شُوشَن القصر: قد قَتَلَ اليهودُ

وأهلكوا خمس مئة رجل وبني هَامَان العشرة، فماذا عملوا في باقي بلدان الملك؟! فما هو سُؤلكِ، فيُعطَى لكِ؟ وما هي طلبتكِ - بعدُ - فتُقضى؟.

فقالت أَسْتِيْر: إنْ حَسُنَ عند الملك، فليُعطَ غداً - أيضاً - لليهود الذين في شُوشَن أن يعملوا كما في هذا اليوم، ويَصْلبوا بني هَامَان العشرة على الخشبة. فأمر الملك أن يعملوا هكذا، وأُعْطِي الأمر في شُوشَن. فَصَلَبُوا بني هَامَان العشرة. ثم اجتمع اليهود الذين في شُوشَن، في اليوم الرابع عشر - أيضاً - من شهر آذار، وقَتَلُوا في شُوشَن ثلاث مئة رجل، ولكنهم لم يمدّوا أيديهم إلى النَّهْب. وباقي اليهود الذين في بلدان الملك اجتمعوا، ووقفوا لأجل أنفسهم، واستراحوا من أعدائهم، وقَتَلُوا من مُبغضيهم خمسة وسبعين ألفاً. ولكنهم لم يمدّوا أيديهم إلى النهب... لذلك؛ يهود الأَعْرَاء الساكنون في مُدُن الأَعْرَاء، جعلوا اليوم الرابع عشر من شهر آذار للفرح والشُّرْب، ويوما طيباً، ولإرسال أنصبة من كلّ واحد إلى صاحبه»[1].

---

(1) سِفْر أَسْتِيْر.

الفصل الثاني

المسيحية والشمس المُقدَّسة

تظهر عقيدة عبادة الأنثى - بشكل أكثر وضوحاً وجلاء - في الديانة المسيحية، بل إن المُتتبِّع لتاريخ نشوء المسيحية، والملابسات التي صاحبت تكوُّن عقائدها، ليكاد يميل إلى الجزم بأن المسيحية لم تُولَد إلا من رحم الديانة اليونانية القديمة، التي تمحورت حول عبادة الأنثى في صيغة تقديس الشمس العظمى، التي كانت تُعَدُّ ربّة الأرباب، وأمّاً لجميع الآلهة.

لقد كان يُرمَز للإلهة الشمس بالنجمة الرباعية، التي تتَّخذ شكل الصليب، وهو الرمز نفسه الذي اتخذته المسيحية شعاراً لها، بل وحتى قبل أن يعرف الأوروبيون شيئاً عن المسيحية، كان الجنود اليونانيون يرسمون على دروعهم علامة الصليب، قبيل توجُّههم للمعركة،

وذلك اعتقاداً منهم بأن قوى الشمس العظمى ستتجسَّد فيهم، وتتَّحد معهم لتهبَّ لهم النصر على أعدائهم.

عندما نشأت المسيحية أول ما نشأت، كان من أهمّ عقائدها، وأشدّها تأكُّداً هي عقيدة التسامح المطلق، والاستسلام الكامل للأعداء. وكان يحرم على المسيحي حرمة تامة كاملة أن يقاتل أو يحمل سلاحاً، أو حتى يدافع عن نفسه، مهما أهانه أعداؤه، أو ظلموه، ومهما ازداد عليه القهر والاضطهاد. ولم يكن بإمكان المسيحي أن يخرج على هذه العقيدة، أو يخالفها، وذلك لإيمانه بما ورد على لسان المسيح في الإنجيل:

«سمعتُم أنه قيل: عَيْن بعَيْن، وسِنٌّ بسِنٍّ. وأمَّا أنا؛ فأقول لكم: لا تقاوموا الشَّرَّ. بل مَنْ لطمكَ على خدِّكَ الأيمن، فَحَوِّلْ له الآخر أيضاً. ومَنْ أراد أن يخاصمكَ، ويأخذ ثوبكَ، فاتركْ له الرداء أيضاً. ومَنْ سخَّركَ ميلاً واحداً، فاذهبْ معه اثنَيْن. مَنْ سألكَ فَأَعطِهِ. ومَنْ أراد أن يقترض منكَ، فلا تردَّه. سمعتم أنه قيل: تحبّ قريبكَ، وتبغض عدوّكَ. وأمَّا أنا؛ فأقول لكم: أَحِبُّوا أعداءَكم. باركوا لاعنيكم. أَحْسِنُوا إلى مبغضيكم. وصلّوا لأجل الذين يُسيئون إليكم، ويطردونكم»[1].

لقد كانت هذه العقيدة هي السبب الحقيقي في الاضطهاد الذي حصل للمسيحيين الأوائل على يد الإمبراطور دقلديانوس، ومن بعده؛ جاليريوس. فمع ازدياد أعداء الإمبراطورية الرومانية، واحتياج

---

(1) إنجيل متّى، 5.

الإمبراطور لأكبر عدد من الجنود للدفاع عن الوطن، ظهر المسيحيون يُحرِّضون الناس على عدم الانخراط في الجيش، ويُحرِّمون عليهم القتال وحمل السلاح، الأمر الذي أدَّى إلى اتهام المسيحيين الأوائل بأنهم خَوَنَة للوطن، عديمي الولاء للإمبراطور وبالرغم من المحاولات المضنية التي قام بها الإمبراطور لإقناع المسيحيين بالعدول عن آرائهم، إلا أنهم تشبَّثوا وتمسَّكوا بها بشدَّة، جعلتهم يظهرون وكأنهم فرقة معارضة مناوئة لنظام الحُكْم، تهدف إلى تدمير الإمبراطورية عن طريق تفكيك جيوشها، وتثبيط جنودها عن القتال.

عندها؛ قرَّر دقلديانوس سنة 302م «طرد جماعة من المسيحيين من البلاط، ونفيهم، وكذلك جرى إخراج جماعات من العساكر من الجيش، بعد أن أصرّوا على اعتناق المسيحية... وتقرَّر فرض العقوبات على المسيحيين، منها حرمانهم من حقوق المواطنة الرومانية، وبذا؛ لا يشغلون الوظائف الإدارية والبلدية. وصار ممنوعاً - أيضاً - عتق الأرقَّاء المسيحيين.

وأجاز القرار تدمير الكنائس المسيحية، وإحراق الكُتُب المُقدَّسة. وبهذه الوسيلة حاول دقلديانوس إضعاف سلطة رجال الدِّين بأنْ سَلَبَهُم المصادر التي يستخدمونها في تحويل الناس إلى المسيحية. وزاد دقلديانوس في التنكيل بالمسيحيين سنة 304م، حتى تخلَّى كثير منهم عن عقيدتهم»[1].

---

(1) تاريخ أوروبا العصور الوسطى، 43.

وبعد تنازل دقلديانوس عن الحُكْم، استمرَّ جاليريوس في اضطهاد المسيحيين إلى قبل وفاته بقليل، حينما مرض مرضاً خطيراً، ظلَّ يعاني من ويلاته وآلامه حتى اعتقد بأن سبب مرضه هو اضطهاده للمسيحيين، وأن مرضه لم يكن سوى لعنة حلَّت عليه من الإله المسيحي، عندها؛ أصدر جاليريوس قراراً سنة 311م يجيز حرية العبادة، ثم ما لبث أن توفي على الفور؛ ليترك مرضه ووفاته أثراً قوياً في تفكير خليفته الإمبراطور قنسطنطين، جعله يكنُّ نوعاً من الاحترام والخوف من الإله المسيحي.

بعد وفاة جاليريوس سنة 311م، تنازع حُكْم الإمبراطورية الرومانية أربعة أباطرة، ليسينيوس، ومكسيمين في الشرق، وماكسينتوس وقنسطنطين في الغرب. ولم يكن أمام قنسطنطين - في سبيل سيطرته على القسم الغربي - سوى أن ينتزع الحُكْم من ماكسينتوس منافسه القوى، وفي سبيل تحقيق ذلك كان قنسطنطين يحتاج لقوة سماوية خارقة، تُعينه على إنجاز مهمّته، فقرَّر أن يجرِّب - إلى جانب قوة الشمس - قوة الإله المسيحي، الذي اعتقد أنه كان السبب في مرض جاليريوس، ووفاته.

«أنزل قنسطنطينُ الهزيمةَ الساحقةَ بقوات ماكسينتيوس، وانتزع منه شمال إيطاليا، ثم قرّر أن يمضي في مغامرته للاستيلاء على روما.

والواقع أن اعتقاده في عالم الأرواح أمدَّه بقوة دافقة ازدادت نشوتها في نفسه كلما ازدادت انتصاراته في الحروب، والمعروف أن

الدِّين كان يُقاس - وقتذاك - بمقدار ما يأتي به من نتائج، فإذا جاء بالفتح والنصر لأتباعه، قال الناس إنه الحق والهدى، وإذا جاء بالهزيمة قالوا إنه ضلال مبين. ولذا؛ أيقن قسطنطين - وهو يرتّب شئون الدفاع عن أول حياته العملية الطويلة - أن الصليب - وهو رمز للمسيح وإله الشمس على السواء - سوف يأتيه بالنصر فيما يخوضه من حروب.

وتشير الروايات التاريخية إلى أن قنسطنطين شهد في الرؤيا راية الصليب في السماء، وفيها نقش نصّه «عزّ نصره» مكتوب بأحرف من نور، وإلى أن الإمبراطور اتخذ هذا النقش شعاراً للوائه في حروبه التي ظفر في أثنائها بأربعة انتصارات متتالية على منافسه وخصمه، واستجابة لرؤيا أخرى شهدها أثناء سيره إلى روما، أمر بنَقْش شعار المسيحيين على تروس العساكر.

ودارت المعركة الحاسمة عند جسر ملفيان بالقرب من روما سنة 312م، فغرق في مياه النهر ماكسينتيوس والألوف من رجاله، ثم دخل قنسطنطين روما، فحيَّاه بحماس بالغ كلّ من السناتو والجيش، وبذلك أحرزت المسيحية انتصارها الأول، وتقرّر إقامة تمثال لقسطنطين في روما وبيمينه الصليب رمزاً لهذا الانتصار، وعلى العقد الذي لا يزال قائماً بروما حتى اليوم، يرمز إلى تحرير المدينة من الطاغية، جرى نَقْش العبارة التالية Instinctu divinitatus mentis

«magnitudine» وهي تشير إلى ما كان للقوة الإلهية [1] من أثر في انتصار قنسطنطين»[2].

وفي غمرة الحماس الذي استُقبل به قنسطنطين في روما، اغتنم الفرصة لتوطيد مركزه الدستوري إزاء مركز الإمبراطورَيْن الآخرين في الشرق، مكسيمين، وليسينيوس. فاستطاع قنسطنطين أن يحمل السناتو على أن يمنحه لقب الإمبراطور الأول الذي اختصّ به مكسيمين منذ وفاة جاليريوس، وبذلك؛ صارت له السيطرة على التشريع الإمبراطوري، فبادر بالكتابة إلى زميله في الشرق مكسيمين، يأمره بوقف اضطهاد المسيحيين، ثم أصدر قراراً جدِّيّاً بالتسامح، وأرسل إلى نائبه في أفريقيا يطلب منه أن يعيد للكنائس أملاكها التي سبق مصادرتها، ووجَّه تعليماته إلى الخزانة الإمبراطورية بالأقاليم بأن تؤدّي للكنائس ما تحتاجه من الأموال.

أمر الإمبراطوران (قنسطنطين ومكسيمين) بأن تعود للمسيحيين كل ما سبق مصادرته للكنائس من أملاك، سواء حازتها الخزانة الإمبراطورية أو الأفراد، ويتكفّل بيت المال بتعويض أولئك الذين تقرّر انتزاع الأراضي المصادرة منهم، بعد أن اشتروها.

---

(1) بصرف النَّظَر عن ماهيّتها.

(2) تاريخ أوروبا العصور الوسطى، 46.

ولكـن الإمبراطوريـة الرومانيـة أصـبح يقتـسمها إمبراطـوران مُظفّران، قنسطنطين في الغرب، وليسينيوس في الشرق، بعـد أن تمكّـن من القضاء على منافسه مكسيمين، وعـلى مـا حـدث بـين قنـسطنطين وليـسينيوس مـن دواعـي التـصادم، كـالمؤامرة التـي اشـترك فيهـا ليسينيوس ضد قنسطنطين، والقيود التي فرضها ليسينيوس على رجال الـدِّين المـسيحي، وطـرد المـسيحيين مـن الـبلاط والجـيش والإدارة، وتنازع السيادة على بعض المناطق الواقعة بين حدود نفوذهما، كلّ ذلك أدّى إلى نشوب الحرب بين الإمبراطورَيْن سنة 324م.

دارت معركة حاسمة عند أدرنة، هلك فيها عدد كبـير مـن جـيش ليسينيوس، الذي فرَّ إلى بيزنطة، فتبعـه قنـسطنطين، وحـاصره، حتـى انهارت مقاومته، واضطُرَّ للانسحاب إلى خريصوبولي، وعسكر هناك، فتعقَّبه قنسطنطين، ودارت بينهما المعركة الحاسمة، التي قـرَّرت مـصير ليسينيوس، إلا أن زوجته قنسطنطينا توسَّلت إلى أخيها قنـسطنطين أن يُبقـي عـلى حيـاة ليـسينيوس، فـاكتفى بنَفْيـه إلى سـالونيك. وبـذلك خضعت الإمبراطورية بأكملها لقنسطنطين.[1]

وعلى الرغم من أن المسيحيين لم يكونوا - عنـد المنـاداة بقنـسطنطين إمبراطوراً سنة 306م - سوى أقلِّيَّة صغيرة بـين سُـكَّان الإمبراطوريـة حرمهم الاضـطهاد مـن الاشـتراك في الوظـائف والخـدمات العامـة في

(1) المرجع السابق، 48 .

الدولة، وكانت ديانتهم بغيضة وقتذاك، فإن قنسطنطين حرص على أن يقيم مستقبل روما على هذه العقيدة، وكان لذلك أكبر الأثر في تاريخ العالم.

والمعروف أن قنسطنطينيوس، والد قنسطنطين، كان ينتمي لأسرة هرقل الإمبراطورية، ولَّما خلفه ابنه قنسطنطين في الحُكْم، ظَلَّ نحو أربع سنوات من حُكْمه ممثلاً لهذه الأسرة. غير أنه حرص - بعد وفاة مُؤسّس هذه الأسرة «مكسيميان» سنة 310م - على أن يذيع الرواية التي تشير إلى أنه يتحدَّر - مباشرة - عن طريق أبيه من «كلوديوس جوثيكوس» الذي حكم الإمبراطورية بشطرَيْها الشرقي والغربي، والمعروف أن عبادة الشمس كانت سائدة في إيلليريا موطن كلوديوس. فأضحت الشمس التي لا تُقهَر؛ المعبود الذي يحمي الإمبراطورية ويرعاها، وكان من شدّة تعلُّق قنسطنطين بعبادة الشمس أنه كان يحرص على سكّ العبارات والرموز التي تشير إلى الشمس المُقدَّسة على النقود التي كانت تُضرَب في عهده، حتى بعد اعتناقه للمسيحية.[1]

ولعلّه من أبرز ما يُوضّح لنا نوعية المسيحية التي اعتنقها قنسطنطين موقفه من الدوناتيين، فكان أول عمل قام به - بعد اعتناقه للمسيحية - هو قضاءه على الحركة الدوناتية، ومحوها من الوجود، حتى لم يتبقَّ منها أثر.

---

(1) المرجع السابق، 69 .

وقد اتخذت الحركة الدوناتية لنفسها هذا الاسم من الكاهن المسيحي دوناتس النحوي، الذي لعن وتبرَّأ من كلّ مَن ارتدَّ عن المسيحية زمن الاضطهاد، ولم يتسامح مع مَنْ قال بوجوب مداهنة الإمبراطور، والتنازل عن العقائد المسيحية التي تصطدم مع الإرادة السياسية الحاكمة، ومع الثوابت العقائدية للمجتمع الوثني، الذي كان المسيحيون يعيشون في وسطه كأقلِّيَّة منبوذة، وذلك كي لا يزداد التعذيب والاضطهاد للأقلِّيَّة المسيحية.

بل - وربما - يؤدّي هذا التنازل إلى الاعتراف بالديانة المسيحية كإحدى الديانات الرسمية في الإمبراطورية الرومانية، ومن ثمَّ؛ يستطيع المسيحيون أن يحصلوا على حقوقهم كاملة كمواطنين، ويتمكّنوا من التغلغل في الوظائف والمراكز العليا. وربما يمتدّ نفوذهم إلى مواقع صُنْع القرار السياسي، التي - من خلالها - يمكنهم الإمساك بزمام الأمور، بل - وربما - التَّحكُّم بالقرارات المصيرية للدولة.

بينما كان دوناتس النحوي يرى أن هذا التنازل من شأنه أن يقضي على الأصل الحقيقي للديانة المسيحية، فتذوب وتتلاشى العقيدة المسيحية الصحيحة داخل بوتقة العقيدة الوثنية التي كان يدين بها المجتمع الروماني بحُكَّامه، ومواطنيه.

وقد كانت الأحداث وتداعياتها التي دارت أمام ناظرَيْ دوناتس تؤكّد له - بشكل متصاعد - مدى صحّة نظريته في مقابل نظرية التنازل، وخصوصاً بعد معركة جسر ملفيان، التي ظهر من خلالها

كيف وضع أصحاب نظرية التنازل العقيدة المسيحية برُمَّتها تحت أقدام المطامع السياسية والعسكرية لقنسطنطين، لتتحوَّل الديانة المسيحية إلى ديانة أخرى، ليس لها أيّ علاقة بعقيدة «الخد الآخر».

بعد قضائهم على الدوناتيين؛ فصل مسيحيو قنسطنطين له ديناً يتناسب - تماماً - مع مقاسه، حينما أنتجوا له مسيحية جديدة، ليست سوى نسخة كربونية لعقيدة عبادة الشمس المُقدَّسة «عبادة الأنثى».

فلم يعد الإله المسيحي إله السلام والتسامح والغفران، بقدر ما أصبح إلهاً للحرب والقتال والقوة العسكرية، يُنزل اللعنات على معارضيه، ويصبُّ الأمراض ويُسلِّط قوى الموت والدمار على مخالفيه.

ولم تعد الديانة المسيحية ديانة توحيدية، فقد استنسخ مسيحيو قنسطنطين ثالوثَ الشمس المُقدَّس، فقسموا الإله المسيحي إلى ثلاثة آلهة، حتى لا يبقى في ثالوث قنسطنطين مكان شاغر.

ولم تفتهم عقيدة المُخلّص التي كانت أكثر العقائد الوثنية رسوخاً وتغلغلاً في قلوب وعقول عَبَدَة الشمس، ليقتبسوها بحذافيرها - تماماً - كما أُنزلت على كَهَنَة الأنثى المُقدَّسة، وأنبيائها، وينسجوا حولها القَصَصَ، ويُؤلّفوا لها من الأسفار والآيات ما ادّعوا أنهم تلقّوه وحياً منزلاً من الروح القُدُس، حتى جعلوا عقيدة الخلاص هي العقيدة الأمّ، التي تدور حولها كامل الديانة المسيحية الجديدة.

المُخلِّص:

ظهرت عقيدة الخلاص أول ما ظهرت في بلاد سومر، وكان العراقيون يتناقلون حولها أسطورة خالدة، تدور أحداثها حول إلهة الحب والخصب والإغراء «عشتار».

فيُرْوَى أن إله الرعي والزرع والمطر «دموزي» أو «تموز» - كما يُسمّيه الأكديون - قد وقع في عشق عشتار، وهام بها حباً. وظلّ يلاحقها حتى تزوّجته، وكان زواجهما في شهر مارس، الذي أصبح شهر الخير والأمطار والربيع والخضرة احتفالاً بهذا الزواج المبارك.

عاشت عشتار مع تموز حياة سعيدة، فقد كان حبه لها لا يحدّه حدود، إلى أنْ قرّرت عشتار ذات يوم القيام برحلة إلى عالم الأموات، أو العالم السفلي كما يُسمّيه السومريون. وبعد إجراءات مُعقّدة سمح لها بدخول «عالم اللارجعة» بعد أن جُرِّدَتْ من ثيابها، وحليها، وتاجها.

ولكن؛ عندما عبرت البوابة السابعة، والتقت أختها «إيرشكيجال» إلهة العالم السفلي، استشاطت أختها غضباً من قدومها للعالم السفلي دون إذن منها، واعتبرت ذلك تعدّياً على مملكتها، فأمرت وزيرها «نمتار» أن يسجن أختها عشتار، ويُطلِق عليها الأرواح الشرّيرة لتعذيبها.

لم ترضَ بقيةُ الآلهة بالمصير الذي آلت إليه عشتار، فأرسلوا يتوسّطون لدى إيرشكيجال كي تعود عشتار إلى الحياة، فبدون عشتار لن تسير الحياة على الأرض بشكل طبيعي، إلا أن قوانين العالم السفلي

تقضي بأنه مَنْ دخل إلى هذا العالم لا يستطيع أن يخرج منه إلا بمُخلِّص، لذلك؛ فقد كان خروج عشتار إلى عالم الحياة مشروطاً بتقديمها بديلاً عنها، يأخذ مكانها في العالم السفلي، لهذا؛ فقد لازمتها عند خروجها زمرة من الشياطين لتنفيذ هذا الشرط.

أخذت عشتار أهبتها للخروج من عالم الأموات، ومرَّت في طريق عودتها بالبوَّابات السبع، التي دخلت منها، وعند كلّ بوابة كان يُعادُ إليها ما سبقَ أنْ أُخِذَ منها. وكان وزيرها المُسمّى «ننشوبر» أول مَنْ لاقاها بعد خروجها، فحاولت زمرة الشياطين إلقاء القبض عليه، وأَخْذه بديلاً عنها، ولكنها تشفَّعت له بسبب وفائه لها، وجهوده في سبيل إنقاذها. وواصلت طريقها حتى وصلت مدينة «أوما»، فاستقبلها «شارا» إله تلك المدينة، فأرادت زمرة الشياطين أَخْذه بديلاً عنها، ولكنها تشفَّعت له، فأخلوا سبيله.

وقبيل وصولها إلى مدينتها الورقاء، فُوجئت برؤية زوجها تموز وهو في أفخر زيّ، وأروع أبّهة، كأنه لم يكترث لما حلَّ بها، فأشارت - وهي في فورة غضبها - إلى الشياطين التي برفقتها أنْ تأخذه بديلاً عنها إلى العالم السفلي.

هجمت الشياطين على دموزي، وقيَّدتْ يدَيْه بالسلاسل، وأوثقتْ رجلَيْه بالحبال، وانهالتْ عليه ضرباً بالسياط، وطعناً بالفؤوس، وحملته معها والدماء الغزيرة تنزف من جسده، ووجهه، فرفع يدَيْه باكياً

متضرّعاً إلى صهره والد عشتار الإله «أوتو» إله القمر، مُتوسّلاً إليه أن يُخلّصه من زمرة الشياطين، ويُنقذه من سوء المآل، فاستجاب أوتو لتضرُّعاته، فجعل جسده مثل صل يجوب السهول العالية، وجعل روحه مثل طير يفلت من مخالب النسر.

وهكذا تمكّن من أن يفلت من زمرة الشياطين، ويختبئ في حضيرة الماشية، بيد أن الشياطين سرعان ما تعثر عليه، وتُقيِّده، وتنهال عليه ضرباً بالفؤوس، وتقتاده مُدمّى الجسم، كسير الفؤاد، إلى العالم السفلي.[1]

هنا؛ بات لزاماً على الآلهة أن تعمل على تخليص «تموز»، وبعثه من الموت ليصعد من العالم السفلي إلى عالم الحياة في فترة معلومة من كلّ عام، حتى يقوم بدوره الإلهي في إنزال المطر وإخصاب الأرض وتهيئتها لموسم الزرع والرعي، ثم يعود - مرة أخرى - إلى عالم الأموات؛ ليبقى فيه حتى يحين موعد انبعاثه في السنة القادمة، ليُعيد الحياة إلى دنيا الرعي والزراعة كي لا يموت الناس جوعاً، وذلك في دورة أبدية لا تنقطع. وأصبح موعد انبعاثه، وصعوده من عالم الموت هو بداية فصل الربيع، في الثاني عشر من شهر مارس. وهو اليوم الذي مازال يحتفل به سُكّان بلاد مابين النهرَيْن وفارس، ويجعلونه أول يوم في السنة الفارسية، ويُسمّونه بيوم النيروز.

---

(1) عشتار ومأساة تموز: فاضل عبد الواحد علي (بتصرّف).

وعند المصريين هو عيد شَمِّ النسيم. أمَّا أهل الغرب؛ فقد جعلوا من هذا اليوم عيداً للأمّ، وهم يقصدون بالأمّ - هنا - الإلهة عشتار أمّ الآلهة.

وبعد انتهاء فصل الربيع، يعود إله الخلاص «تموز» ليهبط إلى عالم الأموات، فيصاحب هبوطه هذا موجة من الجفاف والحرّ يبدأ بها فصل الصيف مع بداية شهر تموز «يوليو».

فتموز هو مُخلّص «عشتار» إلهة الآلهة، وهو - أيضاً - مُخلِّص الطبيعة الأمّ بمياهها وأمطارها وشجرها وثمارها وخصوبة أرضها وربيعها الزاهر.

ومايزال مُدَّعُو التَّنَبُّؤ بالمستقبل وقراءة الطالع ومُنظِّرو علم الأفلاك والأبراج يعتقدون أن الرجل الذي يولد في شهر يوليو «تموز» تحمل شخصيته صفات المُخلِّص الفادي، فهو الذي يبذل نفسه في سبيل خدمة الآخرين، ورفاهيّتهم، بينما يعيش حياته مُعذَّباً مُضْطَهَداً مقهوراً سيئ الحظّ، ويغادر هذه الدنيا صِفْر اليدَيْن، بينما يتمتَّع الآخرون بثمرة أعماله وإنجازاته.

والملاحظ في الأساطير القديمة أن المُخلِّص دائماً ما يكون هو الزوج، أو العشيق، أو العريس، الذي يبذل نفسه من أجل عروسه، فالأب، أو الأخ، أو القريب، لا يستطيع أن يقوم بهذه التضحية المجنونة، التي لا يقوى عليها سوى شخص أفقده العشق عقله، وذهب الغرام بلُبِّه.

وعندما أرادت الكنيسة أن تستعير شخصية «تموز» لتُسقطها على المسيح، كان لابد للمسيح أن يكون عريساً، فلعبت الأناجيل - في ذلك - دورها:

«حينئذ؛ أتى إليه تلاميذ يُوحنَّا قائلين: لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيراً، وأمَّا تلاميذك؛ فلا يصومون. فقال لهم يسوع: هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا مادام العريس معهم. ولكنْ؛ ستأتي أيام حين يُرفَع العريس عنهم، فحينئذ؛ يصومون»[1].

« حينئذ؛ يشبه ملكوت السموات عشر عذارى أخذن مصابيحهنَّ، وخرجنَ للقاء العريس. وكان خمس منهنَّ حكيمات، وخمس جاهلات. أمَّا الجاهلات؛ فأخذنَ مصابيحهنَّ، ولم يأخذنَ معهنَّ زيتاً. وأمَّا الحكيمات؛ فأخذنَ زيتاً في آنيتهنَّ مع مصابيحهنَّ. وفيما أبطأ العريس نعسنَ جميعهنَّ، ونمنَ. ففي نصف الليل صار صراخ هُوذا العريس مُقبل، فأُخرجن للقائه.

فقامت جميع أولئك العذارى، وأصلحنَ مصابيحهنَّ. فقالت الجاهلات للحكيمات: أعطينَنَا من زيتكنَّ، فإن مصابيحنا تنطفئ. فأجابت الحكيمات قائلات: لعلّه لا يكفي لنا، ولكنْ؛ بل اذهبنَ إلى الباعة، وابتعنَ لَكُنَّ. وفيما هنَّ ذاهبات ليبتعنَ جاء العريس، والمُستعدَّات دخلنَ معه إلى العرس، وأُغلق الباب. أخيراً؛ جاءت بقية

---

(1) إنجيل متَّى، 9 - 14.

العذارى - أيضاً - قائلات: يا سيد، يا سيد، افتحْ لنا. فأجاب، وقال: الحقّ أقول لكنَّ: إني ما أعرفكنَّ. فاسهروا - إذاً - لأنكم لا تعرفون اليوم، ولا الساعة، التي يأتي فيها ابن الإنسان»[1].

«وحدثت مباحثة من تلاميذ يوحنا مع يهود من جهة التطهير. فجاؤوا إلى يوحنا، وقالوا له: يا مُعلِّم؛ هو ذا الذي كان معكَ في عبر الأردن، الذي أنتَ قد شهدتَ له هو يُعمَّد، والجميع يأتون إليه. أجاب يوحنا، وقال: لا يقدر إنسان أنْ يأخذ شيئاً، إنْ لم يكن قد أُعطي من السماء. أنتم أنفسكم تشهدون لي أني قلتُ لستُ أنا المسيح، بل إني مُرسَل أمامه. مَنْ له العروس فهو العريس. وأمَّا صديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحاً من أجل صوت العريس. إذاً؛ فرحي هذا قد كمل»[2].

عبدت الشعوبُ الساميةُ الإلهَ «تموز» إله الخلاص والفداء، وأُطلق عليه اسم «بعل»، أو «الإله البعل»، ومنه سُمِّي الزوج بعلاً. وقد انتشرت معابد البعل في بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، وعُرف في لبنان باسم إله الشمس، فبُنيت له عدّة هياكل أكبرها وأفخمها هيكل الشمس في مدينة بعلبك، التي سُمِّيَت باسمه، ومازال معبده في بعلبك قائماً يرمز إلى ثالوث إلهي وثني، يضمُّ - بالإضافة إلى هيكله -

(1) إنجيل متَّى، 25 - 1.

(2) إنجيل يوحنا، 3 - 25 .

هياكل كلّ من الإله الأب «جوبيتير» وإلهة الآلهة «عشتار». وفي مناطق أخرى كان يُسمَّى بأسماء مُركَّبة، كبعل تامار؛ أيْ إله التمر، أو إله النخيل، وبعل حاصور؛ أيْ إله الساعة، وبعل جاد؛ أيْ إله المعسكر، وبعل حرمون؛ أيْ إله جبل حرمون، وبعل مراحيم؛ أيْ إله الإنفجارات، وبعل هامون؛ أيْ إله الجمهور، وغير ذلك.

وكذلك أطلق عليه الكنعانيون اسم الإله «هدد»؛ أيْ إله الطقس والجوّ، وأطلق عليه السومريون والأكديون «أدد»؛ أيْ إله الرعد والمطر.

وفي النماذج التي عُثر عليها لتماثيل بعل، والمعروضة في متاحف دمشق وبيروت وحلب، والتي تعود لأكثر من 1900 عام قبل الميلاد، يظهر بعل وهو يمدّ يده اليمنى للأمام، واليد اليسرى إلى الأسفل، ويعتمر غطاء للرأس، وله أنف على شكل منقار، وجسد نحيل، ووجه كئيب الملامح، تظهر في قسماته علامات الموت والفناء. عيناه جاحظتان وغائرتان في نفس الوقت، وفمه مفغور كأنه يصيح من الألم والعذاب.

أمّا عرب الجزيرة؛ فتارة كانوا يُطلقون على البعل «وُدّ»، وتارة أخرى كان يُسمّونه «هُبَل».

«والوثنية اليمنية تأثَّرت بوثنية بلاد الرافدَيْن، فإن عبادة النجوم والكواكب كان مصدرها الصابئة وبقايا الكلدانيين، وعن أهل اليمن أخذ عرب الشمال عبادة الكواكب، وقوامها ثالوث كوكبي هو القمر والشمس والزهرة»[1].

---

(1) العصر الجاهلي، 29.

«أمَّا القمر؛ فكان الإله الأكبر، ويليه الشمس، وهي اللات، والإلهة، وكانت في نظرهم زوجة القمر، ومنهما ولد «عثتر»، وهو الزهرة.

والقمر كان يُسمَّى عند المعينيين «وُدّ»، وعُرف - أيضاً - عند السبئيين وغيرهم باسم ورخ، وسين، وهوبس، والمقة، وشهر، وكهل، وأيم، باعتباره أكبر الآلهة سناً، والمقدّم عليهم جميعاً، وكان يُطلَق على جميع أسماء القمر لفظ مشترك هو «أل»، أو «إيل»؛ أيْ الله، أو الإله، ويقابله بعل، أو هُبَل عند العرب الشماليين.

وكانت للقمر منزلة عظمى، وهو الإله الأثير، ومكانته عند عرب الجنوب أسمى من مكانة الشمس (اللات)، التي كانت لحرارتها الشديدة في الصيف تُعرَف باسم ذات حميم، أو ذات حمم. ولكن القمر كان هو دليل الحادي، ورسول القافلة، ولذلك لُقِّب بالحكيم والقدّوس والصادق والعادل والمبارك والمُعين والحامي.[1]

أمَّا الشمس؛ فَصَنَمٌ عَبَدَهُ العرب قبل الميلاد، وبه تَسمَّى كثير من العرب، فعُرفوا بعَبْد شمس وعَبْد اللات. وقد ذكر الإخباريون أن أول مَنْ تَسَمَّى به سبأ الأكبر، لأنه أول مَنْ عَبَدَ الشمس.

---

(1) ويعدُّ كَهَنَة الأفلاك والأبراج أن القمر هو الكوكب الخاصّ والحصري لبرج السرطان، وهو البرج الذي يوافق شهر تموز.

والشمس أُنثى في العربية الجنوبية، فهي إلهة، ولكنها في كتابات تدمر مُذكَّر، وكانت تُسمَّى عند المعينيين باسم «نكرح»، وعند السبئيين بذات حميم، وذات بعدن، وذات غضرن، وذات برن.

و«عثتر» في العربية الجنوبية إله مُذكَّر، وفي العربية الشمالية إلهة أنثى، وهي «العُزَّى»، أمَّا في الجنوب؛ فهو إله الزهرة، والزهرة هو المعني به في القرآن الكريم «النجم الثاقب»، وهو أكثر نجوم السماء تألقاً ولمعاناً، ويُعرَف بعزيز، ونجم الصباح، الذي يسبق الشمس قبل شروقها، وقد عُرف - أيضاً - «بذي الخلصة»، و«ملك»، ولمَّا كان الملك يُرمَز له بالتاج، فإن ما ذكره ابن الكلبي خاصاً بالإله ذي الخلصة في تبالة يُؤكّد هذا القول.

وهكذا كان القمر يحتلُّ في ديانة العرب الجنوبيين المركز الأول، ورمز للقمر بالثور، ولعلّ سبب ذلك يرجع إلى أن للثور قرنَيْن، يُشبهان الهلال، وقد قدم أهل اليمن القمر على الشمس كما فعل الكلدان.

أمَّا الوثنية في العربية الشمالية؛ فكانت صورة تقليدية للوثنية البابلية، وممَّا يدلُّ على تأثُّر العرب بكلدة وآشور تقديمهم الليالي على الأيام؛ لأن شهورهم مَبْنية على مسير القمر، مُقيَّدة بحركاته، وهو ما يتَّفق ونظرة الكلدان، ويختلف مع نظرة الروم والفُرْس.

ومن مظاهر تأثُّر العرب بوثنية الكلدان وآشور أن كلمة «صنم» أصلها «سلم» العبرانية، أو الآرامية، وقد دخلت هذه الكلمة في بلاد

العرب مع دخول الأصنام، ومن الثابت أن العرب لم ينحتوا الأصنام لجَهْلهم بفنون النحت، وأن الأصنام جُلِبَتْ إليهم من الخارج، ومنها «هبل»، وهو «بعل»، واللات وهي اللاتو البابلية، ومناة وهي مامناتو البابلية أيضاً، وهي بنت الإله، كما جلبوا العُزّى وهي «عشتار» البابلية.[1].

«ويقال إنه كان في الكعبة عند فتح الرسول - ﷺ - لمكة ثلاثمائة وستون صنماً، وكان أعظمها عند القرشيين «هبل»، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، فجعلتها له قريش من ذهب، وكان في جوف الكعبة قدّامه سبعة أقداح، مكتوب في أحدها «صريح»، والآخر «ملصق». فإذا شكُّوا في مولود أهدوا إليه هدية، ثم ضربوا بالقداح [2]، فإن خرج (صريح) ألحقوه بأبيه، وإن خرج (ملصق) دفعوه، وقدح على الميت، وقدح على الزواج، وهكذا.

وإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً، أو عملاً أتوه، فاستقسموا بالقداح عنده، فما خرج عملوا به، وانتهوا إليه. وعنده ضرب عبدالمُطَّلب بالقداح على ابنه عبدالله. وباسمه كان يُنادي أبو سفيان في معركة أحد، ويصيح: أُعْلُ هُبَل» [3].

---

(1) نصوص تاريخية في التاريخ الإسلامي، 30.

(2) السهام.

(3) العصر الجاهلي، 91.

لم يكن المُخلِّص «هبل» مجرّد صنم يُستقسم عنده، وتُذبَح على نصبه القرابين، بل إن ثقافة الخلاص التي كان يرمز لها إلههم المُخلّص كانت قد تجذَّرت في لاشعورهم، وتفاعلت مع حياتهم الفكرية؛ لتنتج عنها عقيدة فداء مُتأصِّلة، كانت تدفعهم لانتظار هذا المُخلِّص، ليس - فقط - في موسم الربيع من كلّ عام، بل وفي كلّ محنة، أو أزمة، أو مشكلة تواجههم في حياتهم.

يقول الدكتور فاروق عمر فوزي في معرض حديثه عن ألقاب الخلفاء العباسيين، ودلالاتها الدّينية:

«وللقب المنصور أهمية كبيرة، كما وأن له جذوراً تاريخية عريقة تعود إلى صدر الإسلام والجاهلية، ذلك لأن هذا اللقب كان معروفاً في جنوبي الجزيرة العربية منذ القِدَم، وتذكره الروايات والملاحم بأنه المُنقذ الأسطوري الذي ينتظره الناس، والمُسمَّى «القائم المُنتظَر» الذي سيخرج لينشر العدل.

ويستطرد نشوان الحميري [1] في كلامه عن المُنقذ فيقول بأن لكل جماعة مهديها، فلليهود مُنقذها من آل داود، وللمسيحيين مُنقذهم وهو عيسى بن مريم، وللمجوس مُنقذها من أبناء بهرام كور، الذي سيُعيد الدِّين الفارسي القديم، وللشيعة فِرَق متعدّدة كلّ يدَّعي أن له مهدياً خاصاً به، وللحميريين مُنقذهم الحميري، الذي سيُعيد مملكة

(1) في شمس العلوم.

حمير بالعدل. ويذكر الهمداني[1] بأن منصور حمير يسكن في جبل «دامغ»، وسيخرج في وقته المناسب له.

ورغم أن هذه المصادر مُتأخّرة إلا أنها تعتمد على روايات قديمة وملاحم شعبية شائعة، ومنها يتبيَّن أن لقب المنصور ذو دلالات دينية تنبُّؤية تشير إلى المُنقذ المُنتظَر في الأساطير العربية القديمة، وهذا المُنقذ يظهر بأسماء مختلفة، مثل «منصور اليمن»، و«منصور حمير»، و«القحطاني المُنتظَر»، الذي سيُعيد مجد جنوب اليمن المندثر.

أمَّا في الفترة الإسلامية؛ فقد استعمل هذا اللقب في ثورات كثيرة ضد الأمويين، ففي ثورة المختار الثقفي في الكوفة سنة 66 للهجرة كان شعار الأتباع أثناء القتال «يا منصورُ؛ أَمِتْ»؛ أيْ اقتلْ. وفي ثورة عبد الرحمن الأشعث سنة 81 للهجرة كان من ألقابه الشائعة «القحطاني»، و«المنصور عبدالرحمن». وفي سنة 121 للهجرة حثَّ شيعة العلويين زيداً بن علي على الثورة قائلين له إنهم يأملون أن يكون هو «المنصور»، وأن الوقت قد حان لتكون على يدَيْه نهاية الأمويين. وأهمّ من هذا كلّه فإن أحد شعارات ثورة رمضان العباسية سنة 129 للهجرة كانت «يا مُحَمَّد، يا منصور»، ومُحَمَّد هذا هو مُحَمَّد بن علي بن عبدالله بن العباس.

---

(1) في الإكليل.

وهكذا؛ فإن اتخاذ الخليفة أبي جعفر للقب المنصور كان في محلّه من حيثُ طبيعته التَّنبُّؤية المهدوية التي تمسُّ أحاسيس الناس، وخاصة القبائل اليمانية، وتجعلها تتوهَّم بأنه هو المنصور حقّاً الذي سينشر العدل، ويعيد الأمن والرفاهية، وأن ما ادّعاه مُحَمَّد النَّفْس الزكية من أنه المهدي باطل، وإلا لما استطاع المنصور أنْ يقضي على المهدي.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن ادّعاء أبي جعفر بأنه المنصور، أو اتخاذه هذا اللقب، يُعطي برهاناً مهمّاً على الطبيعة العربية للثورة العباسية، وعلى اعتماد الدُّعاة العباسيين على القبائل العربية، وخاصة اليمانية من أهل خراسان، فلو أن الدُّعاة العباسيين لم يدركوا أهمية العرب الخراسانية لما استعملوا شعار «يا مُحَمَّد، يا منصور»، الذي له علاقة كبيرة بالقبائل اليمانية.

كما وأن اختيار الخليفة لهذا اللقب بالذات يدلُّ على إدراك خلفاء العصر العباسي الأول لأهمية العرب، وخاصة اليمانيين منهم، واعتمادهم عليهم، وربما تفضيلهم على القيسية في أحيان كثيرة، كما تدلُّ على ذلك رواية فريدة في تاريخ الموصل»[1].

ويستطرد الدكتور فوزي في كلامه عن لقب «المهدي» قائلاً:

«ويشير الوردي إلى أن كلمة المهدي هي - في الواقع - تقريب للفظة المسيح الموجودة في التوراة. فالمسيح معناه الممسوح؛ أيْ أنه

(1) دراسات في التاريخ الإسلامي، 373 .

ذلك البطل المُنقذ الذي يمسحه الإله، والمَسْحُ في التوراة معناه الهداية والإرسال والتأييد الرّبّاني. وتشير التوراة إلى أن النبي إلياس، الذي رُفِعَ إلى السماء، لابد وأن يعود إلى الأرض في آخر الزمن؛ لإقامة دعائم الحقّ. وهذا القول يشبه - إلى حَدٍّ كبير - فكرة المهدية.

وممَّا يتصل بفكرة المهدية أو المُنقذ المُنتظَر هو تطلُّعها نحو المستقبل، وتُظهر رواياتنا التاريخية عن الشرق الإسلامي أو أوروبا في العصور الوسطى أن بدايات القرون أو الحقب كان لها - دائماً - سِحْر خاصّ، يُغري بالتَّطلُّع، ويُنبئ بحدوث تبدُّل. فكان الناس يحاولون - في هذه الفترات - أن يتنبَّؤوا أو يتصوَّروا تغيُّر الأحوال إلى الطريق الأحسن، الذي يجب أن تكون عليه، وكان هناك - دوماً - مَنْ يستغلّ هذه المشاعر لدى الناس، فيكسب ولاءهم إلى حين أن يُحقِّق أغراضه، سواء كان هذا المُستغِلّ الطموح حاكماً أم ثائراً على الحُكْم، أم رجل دين، أم مغامراً، أم مصلحاً.

والمَثَلُ الذي سنبحثه في دراستنا هذه هي محاولة الخليفة المنصور ضمان ولاء الرعية إلى ابنه ووَليّ عهده مُحَمَّد، بعد أن تصير إليه الخلافة، وكان هذا هو السبب الحقيقي وراء تلقيبه بالمهدي، ذلك اللقب الدّيني الذي يجذب الناس، ويُغريهم بالتَّطلُّع إلى خلافة المهدي، باعتبارها الأمل المنشود والحُكْم الأفضل»[1].

---

(1) دراسات في التاريخ الإسلامي، 376.

أمَّا في التراث اليوناني؛ فنجد المُخلّص «بعل» قد أُطلِقَ عليه اسم «أدونيس». وقد تمَّ تصدير هذا الاسم إلى بلاد اليونان من السواحل اللبنانية، فمدينة جبيل كان اسمها - قديماً - «أدون»[1]، وهو الاسم نفسه الذي كان يُطلَق في بلاد الرافدَيْن على الإله «دموزي» أو «تموز»، وقد انتقلت - أيضاً - عبادة أدونيس من شرق المتوسّط إلى مصر؛ حيث كان له معبد في مدينة «فاروس»؛ وهي الإسكندرية. تروي الأساطير اليونانية قصة ولادة أدونيس بأنه كان هناك فتاة جميلة تُدعَى «مورا»، وحدث أنْ تفاخرت مورا - ذات يوم - بجمالها على الإلهة «فينوس»[2]، فحقدت عليها فينوس، وحكمت عليها بأن تعشق والدها[3]، وأمرت فينوسُ ابنَهَا «كيوبيد» أو «أيروس» - الذي كان بيده مقاليد الحبّ والعشق والغرام - بأنْ يرشق مورا بسهام الحبّ وهي نائمة، ففعل ما طلبتْهُ منه والدته، حتى وقعت مورا في غرام أبيها، وأصبحت ترفض كلّ مَنْ يتقدّم لخطبتها.

وكان قد بلغ غرام مورا بأبيها غايته، فطلبت من مُربّيتها أن تُعينها في وَضْع خطَّة تُمكِّنها من مضاجعة والدها دون أن يعلم.

---

(1) ومعناه السيد أو الرّبّ.

(2) وهي عشتار عند البابليين، والعُزّى عند العرب.

(3) والد مورا.

أخبرت المُرَبِّية والدَ مورا بأنَّ إحدى جواريه ترغب في معاشرته، فاستجاب للطلب، فوضعت وشاحاً على وجه مورا، وأَدْخَلَتْهُ عليها، فضاجعها.

واستمرَّت مورا في مضاجعة والدها بالطريقة نفسها، دون أن يكشف شخصيتها إلا بعد مدة طويلة، عندها؛ أشهر سيفه، وهَمَّ بقَتْلِهَا، إلا أنها تمكَّنت من الهرب، واختفت عن الأنظار. ولكن مورا اكتشفت أنها حُبلى من أبيها، فتضرَّعت للآلهة أنْ تُحوِّلها إلى شجرة، حتى تُنقذها من هذه الفضيحة.

تحوَّلت مورا إلى شجرة، فتمدَّدت أصابع أقدامها؛ لتتحوَّل إلى جذور تخترق الأرض، وتحوَّلت يداها إلى أغصان وفروع، وتحوَّلت عظامها إلى جذع خشبي، وجلدها إلى لحاء. وسُمِّيَتْ هذه الشجرة بشجرة مورا، أو شجرة «المُرّ»، التي مايزال الكثيرون - حتى يومنا هذا - يُقدّسونها في جبال سوريا ولبنان والأردن، وتأتي عندها الفتاة التي ترغب في الزواج؛ لتربط في أحد أغصانها قطعة من قماش أو قميص قديم يحمل رائحة عَرَقِهَا.

حانت ساعة ولادة مورا، فانشقَّ لحاؤها؛ ليخرج منه ذلك الطفل ذو الجمال الأسطوري، خرج أدونيس إلى الحياة؛ لتتلقَّفه أيدي الحوريات، ويَغْسِلْنَهُ بدموع أمِّه المسخوطة، وكانت فينوس تراقب ولادة أدونيس، فَسَحَرَهَا جماله، وتعلَّقت به، فاختطفتْهُ، ووضعتْهُ في

تابوت، وسلَّمتْهُ ليد أختها «برسفونة» إلهة الموت والعالم السفلي؛ كي تتولَّى تربيته حتى يكبر، فتتزوّجه فينوس، ولكنَّ برسفونة تعلَّقت به هي الأخرى، ولم تستطع مقاومة جماله، فأرادت أن تستأثره لنفسها، ولكنْ؛ هيهات أن تتركه فينوس لها.

اقتتلت الشقيقتان على أدونيس، واحتكمتا لدى كبير الآلهة «جوبيتير»، أو «زوس»، فقسم السنة إلى ثلاثة أقسام، كلّ قسم من أربعة أشهر، وجعل جوبيتير قسماً لفينوس، وقسماً لبرسفونة، أمَّا القسم الأخير؛ فيكون فيه أدونيس حُرَّاً، يختار فيه مَنْ يشاء منهنَّ ليقضيه معها، فاختار أدونيسُ فينوسَ لجمالها الأخَّاذ كي يقضي معها ثلثَي العام، ويقضي الثلث الأخير مع أختها.

ولكنَّ فينوسَ رمزَ الخبث والمكر والدهاء، رمزَ الغيرة والحسد والأنانية وحبّ التَّملُّك، رمزَ الأنوثة الكاملة، لم تقبل بمتعة ناقصة. فما كانت لتترك أدونيس في الأربعة الأشهر الخاصة بشقيقتها دون أن تحظى به، فكانت تطوف بعربتها التي تجرّها البجعات المُجنَّحة حول قصر برسفونة؛ لتتحين الفُرص التي ما كانت لتلوح لها حتى تختلي بأدونيس، وتضاجعه، حتى اختلت به - مرَّة - في أحد المعابد؛ لتحبل منه بخنزير ملعون نتيجة للخطيئة التي ارتكباها.

وعندما وُلد الخنزير؛ انقضَّ على أدونيس، وأخذ ينهش في لحمه، ويقطّعه إرباً، والدم ينهمر منه انهماراً على الرمال. فحزنت فينوس على أدونيس حزناً شديداً، وأخذت تلطم خدَّيْها، وتمزِّق ملابسها، وتبكي

بحرقة، وقرَّرت أن تُلوِّن بدمه الزهور البيضاء كلّ ربيع، لتخرج أزهار شقائق النعمان حمراء اللون، ومازال الكثيرون في بلاد العراق - وخصوصاً من الطائفة اليزيدية - يحتفلون - كلّ ربيع - بتزيين بيوتهم وشوارعهم بباقات من أزهار شقائق النعمان.

وها هي صفة أخرى تُضاف إلى المُخلِّص الفادي، وهي صفة سيلان الدم، الذي يجب أن يبقى مُنهمراً من جسده بغزارة، وهو يبكي، ويتألَّم؛ ليُضفي هذا الدم بلونه الأحمر القاني مزيداً من البهجة والجمال على الطبيعة الربيعية.

أمَّا مُخلِّص المصريين القدماء؛ فله قصة أخريح؛ حيث تروي لنا الأساطير المصرية واليونانية - على السواء - أن إله الربيع والمراعي والأراضي الخصبة «أوزيريس» كان قد تزوَّج من إلهة الفتنة والجمال والخصوبة « إيزيس»، وكانت إيزيس تملك قوّة سِحْرية عظيمة، مَكَّنَتْهَا من مساعدة زوجها على إدارة شؤون البشر بشكل استثنائي، جعل من وادي النيل جنة سماوية، لا يعرف سُكَّانها سوى الرخاء والسعادة المطلقة.

وكان لأوزيريس أخ يغار منه، ويكنُّ له الحقد والضغينة، اسمه «ستْ»، وكان «ستْ» يسعى لقَتْل أخيه أوزيريس؛ ليستولي على مملكته، ويُحوِّلها إلى مملكة خراب ودمار.

وفي ذات يوم دعا «ستْ» أخاه «أوزيريس» لمأدبة، ادَّعى أنه أقامها احتفاءً بأخيه الملك العادل الحكيم، إلا أنه كان قد دبَّر مكيدة لأخيه؛ بهدف القضاء عليه أثناء الاحتفال، وكانت المكيدة تتمثَّل في أنه صنع تابوتاً من الخشب، في غاية الجمال والفخامة، تابوتاً ليس له مثيل في بلاد مصر، من كثرة ما رُصِّعَ به من لآلئ وأحجار كريمة، وما لبس به من ذهب خالص، يسرُّ الناظرين.

صنع ستْ ذلك التابوت بأبعاد تتناسب - تماماً - مع طول قامة أوزيريس، ولا تتناسب مع غيره.

وبعد الانتهاء من العشاء؛ طلب ستْ من المدعوّيين أن يرقد كلّ منهم داخل التابوت، والذي يتناسب طوله منهم مع التابوت يكون التابوت هدية له، فوافق الجميع، وبدأ كلّ واحد منهم بالتَّمدُّد داخل التابوت؛ ليُجرِّبوا مقاسه، الذي لم يتناسب مع أحد منهم، حتى جاء أوزيريس، وشرع في التَّمدُّد داخل التابوت، وما إنْ أصبح جسده بكامله داخل التابوت حتى انقضَّ الحاضرون، وأقفلوا التابوت عليه، وأحكموا إغلاقه.

قذف ست وأعوانه بالتابوت في النيل، الذي ظلَّ يبحر بالتابوت حتى قذف به في البحر، ليكمل التابوت مسيرته، ويستقرّ على شاطئ مدينة «بيبلوس»، التي كانت تحت حُكْم الملك «مالكندر» وزوجته «أستارت».

رسا التابوت تحت جذور شجرة عظيمة، سرعان ما نَمَتْ أغصانها حول التابوت؛ ليختفي في جوفها. وكان الملك مالكندر وزوجته في رحلة إلى ذلك الشاطئ، فرأى الشجرة، وأُعْجِبَ بعَظَمَتِهَا، فأمر بقَطْعها، وحملها إلى قصره، والتابوت بداخلها، دون أن يعرف بذلك.

شعرتْ إيزيس - بحِسِّها الإلهي - أن مكروهاً ما حصل لزوجها. فقامت برحلة بحث مُضنية، تعرَّضت - خلالها - لجميع أنواع المتاعب والمشقَّات، حتى وصلت إلى قصر الملك مالكندر، الذي احتفى بها احتفاء شديداً، وعرض عليها أن تطلب ما تريد دون تحرُّج، فطلبت منه الشجرة، فأهداها إياها، وبذلك؛ استطاعت أن تخرج تابوت زوجها، وتعود به إلى قصرها. إلا أن ست علم بوجود التابوت في القصر، فاستغلَّ غياب إيزيس؛ ليتسلَّل، ويسرق التابوت، ويُخرج منه جثة أوزيريس، ويقطّعها أربعة عشر قطعة، وينثرها في مياه النيل، عندها؛ قامت إيزيس برحلة بَحْث هي أشدّ قسوة من الأولى؛ لتجمع أجزاء زوجها المتناثرة، فَجَمَعَتْهَا ما عدا جزءاً واحداً لم تعثر عليه، وهو عضوه التناسلي.

ألصقتْ إيزيسُ الأجزاءَ الثلاثة عشر ببعضها، وصنعت من الطين عضواً ذَكَرياً، عوضاً عن الجزء الناقص، وألصقته بالجثة، وشرعت في تلاوة طلاسمها السِّحْرية؛ لتلتصق الأجزاء ببعضها التصاقاً تاماً، وتتركّز روح زوجها في عضوه الذَّكَري.

عندها؛ قامت إيـزيس بمـضاجعته؛ لتنتقـل روحـه إلى أحـشائها، وتحبل منه بابنها حورس، الذي أصبح فارساً عظيم الشجاعة والقـوة، تمكَّن - عند بلوغه - من تخليص مملكته من حُكْـم سـتْ، فقتـل سـتاً، واستعاد عرشه، وأنقذ البلاد ممَّا كانت فيه من الشَّرِّ والخراب.

أريوس:

إن المتتبّع لتاريخ العالم القديم يجد أنه لم تخلُ بقعة على وجه الأرض من عقيدة الخلاص في الأديان البشرية التـي سـبقت المـسيحية بـآلاف السنين، فمُخلِّـص المجـوس كـان «ميثـرا»، ومُخلّـص الهنـدوس كـان «كرشنا»، ومُخلِّـص الـصين كـان «بـوذا»، وغـير هـؤلاء كـان يوجـد العشرات من المُخلِّصين، الـذين لم تكـن صـفاتهم وظـروف ولادتهـم وموتهم وسيرة حياتهم ومستقبل عودتهم إلى الأرض تختلـف اختلافـاً حقيقياً عن تلك التـي ألبـسها مـسيحيو بـلاط قنـسطنطين لشخـصية عيسى بن مريم عليهما السلام. والتفاصـيل في ذلـك كثـيرة جـداً، قـد أسهب الباحثون في سَرْدها في غير بحث من البحوث.

لقد أضفى مـسيحيو قنـسطنطين عـلى شخـصية المـسيح مفهومـاً جديداً، كان نتيجته ذلك الانشقاق الكبـير الـذي حـصل في صـفوف المسيحيين، بعد أن وجدوا أنفسهم أمام دينَـيْن مختلفَـيْن تمامـاً، فالـدِّين الجديد لم يكن سوى نسخة كربونية من الوثنية التي كانت قائمة آنـذاك

حول عبادة الأنثى المُقدَّسة، وعُشَّاقها، والشخصية الجديدة للمسيح - والتي ابتدعها قنسطنطين ورفاقه - لم تكن سوى شخصية أدونيس، وأوزيريس، ودموزي، وبعل، وغيرهم من عُشَّاق عشتار، ومُغرموها. عندها؛ التفَّ المُخلِّصون من أتباع المسيحية الحقَّة حول القدِّيس أريوس، الذي أعلن - بقوة - كُفْره بالوثنية الجديدة، رافضاً أن يبيع دينه بعرض من الدنيا.

طفق أريوس[1] يتصيّد رموز المسيحية الجديدة؛ ليناظرهم أمام العامة، ويطرح عليهم من الأسئلة المُحرجة ما يكشف به أباطيلهم للناس.

وكان يطلب منهم أن يُفسّروا للناس كيف يكون المسيح إلهاً كاملاً مُساوياً في ألوهيّته لله، وهو - في الوقت نفسه - ليس أزلياً، ولا خالداً، بل، إن شخصيته لها بداية، ولها نهاية، بيد أن الله - سبحانه وتعالى - أزلي، لا بداية له، ولا نهاية، فهو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن.

وإذا كان المسيح هو ابن الله، فهو بذلك أصغر من الله، وأقلّ شأناً، فالابن لابد أن يكون أصغر من الأب، فكيف يكون الأصغر مُساوياً للأكبر؟!

وكان أريوس يشير إلى كلام المسيح نفسه في الإنجيل حينما قال المسيح عن نفسه إنه أقلّ شأناً من الله، ولذلك؛ فقد كان المسيح نفسه يُصلِّي لله، ويطلب منه العون في كلّ أموره، بل إنه كان يقول لتلاميذه:

---

(1) الذي كان قسّيساً في الإسكندرية .

إن الله ليس أبي أنا فقط، بل إنه أبي وأبيكم وأب لجميع البشر، مشيراً إلى أن أُبُوَّة الله ليست أُبُوَّة جسدية، بل إنها أُبُوَّة رعاية وحنان.

وعندما اشتدَّ وَقْع كلام أريوس وأسئلته على مخالفيه، عملوا على محاربته، والتآمر عليه، فقام أسقف الإسكندرية بطَرْده منها، وإهدار دمه، فهرب أريوس إلى فلسطين، والتفَّ حوله خَلْق كثير، حتى أصبح الناس يصوغون من مواعظه الأناشيد والأشعار، ويُردِّدونها في شوارعهم، وحوانيتهم، وقوافل تجارتهم، ومراكب صيدهم، إلى أن ضجَّتْ بصَخَبِهَا أرجاء الإمبراطورية. وعُقدت المجامع الأسقفية التي تُؤيّد أريوس، وتُعلن - رسمياً - كُفْرها بألوهية المسيح، مُتحدِّية - في ذلك - السلطة السياسية، وذلك كمجمع نيقوميديا، ومجمع قيسارية.

دبَّ الرّعب في قلوب أعداء أريوس، فسارعوا لإقناع قنسطنطين بوجوب القضاء عليه، وعلى أتباعه، واجتثاث مذهبه من جذوره، وأعدّوا لذلك خطة محكمة، تمثَّلت في أشهر مجمع كَنَسي، غيَّر مجرى التاريخ، مجمع نيقية سنة 325م.

دعا قنسطنطينُ جميعَ الأساقفة ورؤساء الكنائس في جميع أنحاء البلاد للاجتماع في مدينة نيقية لعقد مجمع كَنَسي ضخم، هدفه الوحيد هو إعلان كُفْر أريوس وجميع مَنْ يقولون قوله، ولَعْنه، وطَرْده من الكنيسة، ومطاردة مذهبه، والقضاء عليه قضاء تاماً.

وتمَّ توجيه الدعوة إلى 318 أسقفاً للمصادقة على قرارات المجمع، وتمَّ استثناء جميع الأساقفة الذين كان يُعتقَد بولائهم لأريوس، ومَيْلهم لأفكاره، ومعتقداته.

هيَّأت سلطات الإمبراطورية للمدعوّين أسباب الانتقال والسفر إلى مقرّ المجمع، واختار قنسطنطين «هوزيوس» الأسباني أسقف قرطبة مستشاراً دينياً له.

قام قنسطنطين بدور هامّ في هذا المجمع؛ حيث تولى بنفسه رئاسة المجمع، بالرغم أنه كان مايزال يحتفظ لنفسه بلقب الكاهن الأعظم للشمس المُقدَّسة.

وأخيراً؛ قام المجمع بالمصادقة على الصيغة المعروفة باسم homo – ousion، والتي تعدُّ المسيح مساوياً للأب في الجوهر، وإلهاً كاملاً من إله كامل، مولود غير مخلوق. وقرَّر المجمع ببُطلان جميع الأناجيل التي تتعارض وهذا الاعتقاد، واعتمد – فقط – الأناجيل الموجودة بين أيدينا في الوقت الحالي، وبالتالي؛ فقد صادق المجمع على كُفْر أريوس وجميع أتباعه، وأُصدرت الأوامر لجميع أجهزة الدولة بتنفيذ ما تمَّتْ المصادقة عليه.

ومن دواعي العلم أن قنسطنطين أعلن نفسه نبياً ورسولاً مسيحياً مساوياً للرُّسُل الذين ادَّعى هو ورفاقه أنهم قد أُوحي إليهم بواسطة الروح القُدُس أن يكتبوا الإنجيل الجديد الذي أقرّه مجمع نيقية إنجيلاً

رسمياً للدولة دون سواه، وبالتالي؛ فقد ادَّعى قنسطنطين أن ما قام به في مجمع نيقية هو وحي من الله، ألقى به الروح القُدُس في قلب قسطنطين الإمبراطور الرسول؛ لينقذ المسيحية من هرطقة أريوس، في الوقت نفسه الذي كان فيه قسطنطين كاهناً أعظما للشمس المُقدَّسة، فأصبحت جميع قرارات قنسطنطين - بعد ذلك - تُعدُّ قرارات إلهية، لا يجوز - بحال - مناقشتها، أو انتقادها، فهي وحي سماوي مُنزَل، تلقَّاه قنسطنطين من روحه القُدُس، التي تربطه - مباشرة - بالله عن طريق خطّ هاتفي ساخن[1].

انطلق أتباع قنسطنطين يجوبون الأرض بحثاً عن الأناجيل الأخرى المخالفة لهم، فقاموا بعملية إبادة مُنظَّمة لها، حتى اندثرت، وتوارت - تماماً - عن الوجود، هي ومَنْ كان يؤمن بها من أتباع أريوس.

أمَّا أريوس؛ فقد تُوفي - رحمه الله - مقهوراً مطارداً شريداً، لتقرّ - بذلك - أعين أعدائه، بعد أن ضمنوا سيطرتهم التامّة على الحياة الدِّينية والفكرية في البلاد.

لقد مارست الكنيسة من صنوف القمع والاضطهاد في حقّ الأريوسيين ما لم يمارسه دقلديانوس في حقّ المسيحيين الأوائل، ممَّا يُرسِّخ حقيقة التوجُّه السياسي الميكافيلي لدى المسيحية الجديدة، ومدى بُعْدها الشاسع عن الروح التسامحية المسالمة للتعاليم المسيحية الأمّ،

---

(1) تاريخ أوروبا العصور الوسطى، 74.

وهو التوجُّه الذي ظلّ ملازماً للمسيحية على مدى الحقبات التاريخية التالية، والذي كان يظهر - بجلاء - في تعاملها مع العلماء والمُفكّرين والفلاسفة والمُصلحين ممَّنْ تتعارض أفكارهم مع التَّوجُّهات السياسية لها.

وما تلك المحارق ومحاكم التفتيش والحملات الصليبية الاستعمارية - القديمة منها والحديثة - سوى شواهد بسيطة على ذلك!

بل إن تلك المسيحية الجديدة كانت خير معين وسند لقنسطنطين في سياسته الحربية والعسكرية، وخير داعم له في قتاله مع الفُرْس، فبالرغم من ادّعاء قنسطنطين اعتناقه المسيحية، إلا أن عدد جُنده وعساكره تضاعف، وازداد، وسياسته العسكرية باتت أكثر عدوانية، خصوصاً بعد أن أضفت عليها الكنيسة طابعاً إلهياً روحانياً.

إن إنكار أريوس لألوهية المسيح هو إنكار لكامل العقائد التي قامت عليها المسيحية الحديثة، والتي بناها واضعوها على ثلاثة أركان، عقيدة الخلاص، وألوهية المسيح، وألوهية الروح القُدُس. وبالتالي؛ فإن إثبات بشرية المسيح ونَفْي ألوهيته هو نَفْي لكلّ من عقيدة الخلاص وألوهية الروح القُدُس.

أمَّا عقيدة الخلاص؛ فتتلخَّص في أن الذنب الذي ارتكبه آدم - بمخالفته لأوامر الله حين أكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها - قد التصق بذُرِّيَّته، فورث كلّ إنسان وُجِدَ على الأرض هذا الذنبَ وراثة إلزامية غير قابلة للتوبة، ولا تسقط بالتقادم، ولا يمكن

لإنسان من نسل آدم أن يدخل الجنة أو يتمتّع بغفران الله ما دام يحمل فوق كاهله وزر الخطيئة التي ارتكبها جدّه آدم في حقّ الله، وهو وزر لا يمكن محوه، مهما بلغ الإنسان من التُّقى والصلاح.

هنا يأتي دور المُخلِّص، والمُخلِّص يجب أن يكون من غير بني البشر، فهو يجب أن يكون طاهراً، لا يحمل فوق عاتقه وزراً، أو خطيئة، والوحيد الذي يتمتّع بهذه الصفة هو الله نفسه، لا أحد غيره، وبذلك كان يجب أن يكون المُخلِّص هو الله بذاته.

إذاً؛ فالله أراد أن يُخلِّص الإنسان من وزر خطيئة أبيه آدم، فتجسَّد الله في صورة إنسان، ثم قدَّم هذا الإنسان الإله نفسه قرباناً لله (لنفسه) نيابة عن البشر، ثم ذبح هذا الإله (الإنسان) نفسه فداء للبشر، كي يكون موته وسيلان دمه كفَّارة عن خطيئة البشر العظمى، المُتمثِّلة في خطيئة والدهم آدم.(1)

وبما أن الخطيئة العظمى، وكبيرة الكبائر البشرية التي ارتكبها والدهم آدم قد تمَّ غفرانها وغسلها ومحوها بدم المسيح، فمن باب أولى تكون بقية الذنوب التي ارتكبها البشر في مسيرتهم الحياتية، والتي تُعَدُّ من باب الصغائر، مقارنة بخطيئة آدم العظمى، قد غُفِرَتْ هي الأخرى. وبذلك يكون موت المسيح على الصليب كفَّارة لجميع ذنوب البشر وخطاياهم؛ ما تقدَّم منها، وما تأخَّر.

---

(1) وذلك تماماً كَمَنْ يترك إحدى واجبات الحجّ، فإن حجَّه لا يتمُّ إلا بتقديمه فدية من دم تُذبح كفَّارة عن ما تركه من الشعائر، أو ارتكبه من الخطايا.

وفي الحقيقة أنه في حال ادّعت الكنيسة أنها أول مَن اخترع هذه العقيدة، تكون قد تعدَّت على حقوق المِلْكية الفكرية للديانة للوثنية الأمّ، التي نشأت وترعرعت في حضنها المسيحية الجديدة.

البشر الآلهة

يقول «دوان» في كتابه «خرافات التوراة والإنجيل»:

ويعتقد الهنود بأن «كرشنا» المولود البكر، الذي هو الإله «فشنو» نفسه، والذي لا ابتداء له، ولا انتهاء، تحرَّك حنوا كي يخلِّص الأرض من ثقل حملها، فأتاها على صورة إنسان وُلد من العذراء النقية «ديفاكي» والدة الله، وخلَّص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه.

وتقول «مسز جنسون» في كتابها «تاريخ سيدنا من الآثار»:

كان الميليتيون يُمثِّلون الإله إنساناً مصلوباً مُقيَّد اليدَيْن والرجلَيْن، مربوطاً بحبل إلى خشبة، وتحت رجلَيْه صورة حمل.

والسوريون يقولون بأن الإله تموز (بعل) المولود البكر من عذراء، قد تألم من أجل الناس، ويدعونه المُخلِّص، والفادي، والمصلوب.[1]

يقول المُؤرّخ «فيشر»: غير أنه ليس ثمّة شكٌ أن اتخاذ المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية - آنذاك - قد ساعد على ازدياد صفوف المسيحيين زيادة سريعة، لا سيما أن التَّحوُّل عن الوثنية إلى المسيحية

---

(1) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، 226 . وانظر أيضاً: الأديان في القرآن، 218 .

لم يكن انتقالاً إلى جوّ غريب تمام الغرابة، أو شعوراً بانقلاب باغت مفاجئ، بل بدا الولوج في المسيحية عملية رفيقة فيها كثير من التَّدرُّج الشعوري العاطفي؛ إذْ شابهت طقوس الديانة المسيحية وأسرارها المُقدَّسة ما للديانة القديمة من طقوس وأسرار، كما اشتملت تعاليمها على تعاليم الأفلاطونية الحديثة.

يضاف إلى ذلك أن القول بوجود واسطة بين الله والناس أمراً كان مألوفا عند الفُرْس وأهل الأفلاطونية الحديثة على حَدٍّ سواء.[1]

ويقول البروفسور «شارل جنيبر» الذي كان رئيساً لقسم تاريخ الأديان في جامعة باريس: إن المسيحية لم تكن تستطيع مدافعة أمام هذه النزعات والشعائر السائدة [2]، وإذا كانت قد انتصرت في القرن الثالث على سائر ألوان التأليف الدِّيني الوثني، فذلك لأنها كانت قد تطوَّرت - هي الأخرى - إلى تأليف ديني، تجتمع فيه سائر العقائد الخصبة، والشعائر الجوهرية النابعة من العاطفة الدِّينية الوثنية؛ حيث قامت النصرانية بترتيبها، وتركيبها، وأضفت عليها الانسجام الذي كانت تفتقر إليه؛ بحيث استطاعت أن تقف - بمُفردها - أمام أشتات المعتقدات والشعائر التي يؤمن بها الوثنيون، دون أن تُظهر ضعفاً أو نقصاً عنها، في أيٍّ من المجالات الهامَّة.

---

(1) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، 227.

(2) في المجتمع الوثني آنذاك.

وتمَّتْ ظاهرة التشرُّب هذه - وهي من الظواهر الأساسية في تاريخ المسيحية - في بُطء بطيء، معتمدة على الاتصال الدائب بتطوُّر الإيمان بين جميع طبقات المجتمع الوثني، ذلك المجتمع الذي اختلفت فيه صور الإيمان باختلاف بيئاته، وباختلاف العهود التي مرَّ بها، وإنما لظاهرة تُفسِّر لنا كيف جاء العصر الذي استطاعت فيه المسيحية أن تكسب عطفاً نشيطاً بين رحاب العالم اليوناني الروماني.[1]

ويقول الباحث الأمريكي «دانييل إ. باسوك» في كتابه «المسيحية وأساطير التجسُّد في الشرق الأدنى القديم»: تركَّزت أساطير هبوط الآلهة وتألُّه بعض البشر في اليونان القديم حول شخصيَّتَيْن من الفلاسفة اليونانيين السابقين لسقراط؛ هما «فيثاغورث» و «إمفيدوكليس».

أمَّا الفيلسوف فيثاغورث؛ فقد عُدَّ تجسُّداً لابن الإله «هرمس» الذي هو رسول الآلهة عند الإغريق، وإله الطُّرُق، والتجارة، والاختراع، والفصاحة، والمكر، واللصوصية، والذي كان يملك سهولة إعادة سلسلة من التجسُّدات الجديدة[2].

فقد ادَّعى تلاميذ فيثاغورث أن أستاذهم كان الإله «أبوللو» إله الشِّعْر والموسيقى والجمال الرجولي عند الإغريق، والذي كان يقيم - حسب اعتقادهم - في منطقة شمالية تنعم بأشعّة الشمس على نحو

---

(1) المرجع السابق، 228 .

(2) وهي القدرة التي تدَّعيها الكنيسة للروح القُدُس.

سرمدي، وأن هرمس «الروح القُدُس» قام بتجسيد هذا الإله - مرة أخرى - في شخص الفيلسوف فيثاغورث. وهذا ما نقله عنهم كُلّ من الفيلسوف اليوناني «ديوجينوس» والفيلسوف المعروف «أرسطو».

أمَّا بالنسبة للفيلسوف أمفيدوكلس؛ فهو معروف بقوله الشهير «أيها الناس؛ إني أتجوَّل الآن بينكم كإله خالد، ولستُ - بعد الآن - إنساناً بشراً». وقد استجاب له الناس، وصاروا يعبدونه، ويُصلّون له كإله.

وكذلك حكاية أن أفلاطون كان من الآلهة، حكاية ترجع إلى فترة زمنية سابقة بوقت طويل لزمان تأليف كتاب العهد الجديد. فالفيلسوف «ديوجينوس لائيرتيوس» يحكي هذه القصة، ويستشهد عليها بنصوص مستندة لابن أخ أفلاطون «سفييو سيبوس» ولتلميذَيْ أرسطو «كليركوس» و «آناكسيليدوس».

كما أن قصة ولادة أفلاطون من غير أب وبشكل معجز خارق للطبيعة موجودة - أيضاً - لدى كاتب السِّيَر اليوناني «بلوتارك»، الذي قدَّم التوضيح التالي، بعد أن روى الولادة الإلهية لأفلاطون:«إن المصريين القدماء كانوا يُجيزون حصول جماع واتصال بين إنسان أنثى وإله ذَكَر».

وقد عاش بلوتارك هذا في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي؛ أيْ كان معاصراً لزمن تأليف كتاب العهد الجديد.

ويـذكر بلوتـارك في أحـد أشـهر مُؤلّفاتـه، وهـو كتابـه «القـوات المحيية»، سلاسـل أنـساب وقَـصَص ولادات فـوق طبيعيـة للحُكّـام البـارزين ولمُؤسّـسي المُـدُن، وأحـد أولئـك الحُكّـام - مـثلاً - هـو «الإسكندر الأكـبر»؛ حيـث يـرى بلوتـارك أنـه ممَّـا لا شـبهة فيـه أن الإسكندر الأكبر كان من ناحية والده سليلاً للإله «هرقلس»[1]، ومـن ناحية والدته سليلاً لأبطال طروادة الأسطوريين.

ويروي بلوتارك عدة روايات مختلفـة عـن ولادة الإسـكندر، تقـول إحداها إن الحمل بالإسكندر قد تمَّ نتيجة لمضاجعة أحـد الآلهـة الـذي اتخذ شكل ثعبـان لأمّ الإسـكندر «أوليمبيـاس»، وأن أحـد الكَهَنَـة مـن وسطاء الوحي كـشف أن ذلـك الثعبـان لم يكـن سـوى الإلـه «زيـوس أمون»، ولذلك ادَّعى الإسكندر أن ذلك الإله العظيم هو أبوه الحقيقي.

إن تأليه الإسكندر الأكـبر أحـدث تطـوُّراً جديـداً تمامـاً في فكـرة التجسُّد في عالم الشرق الأدنى القديم، ففي الوقت الذي كان فيه تأليـه أحد الملوك في مصر القديمة يُعَـدُّ أمـراً عاديـاً - حيـث كـان يُنظَـر إلى الفراعنة عند اعتلائهم العرش في مصر على أنهـم التجسُّد الحـي لإلـه الشمس «حورس» - كان تأليه إنسان مايزال على قيد الحياة في اليونان القديم تطوُّراً جديـداً تمامـاً في فكـرة التجسُّد، وربـما مُـسبّباً لـصدمة بالنسبة لليونانيين القدماء.

---

(1) والجدير بالذِّكر أن قنسطنطين كان يدَّعي لنفسه هذا النَّسَب.

فلقد كانت أهمّ الصفات الإلهية المميزة لآلهة اليونان هي البقاء وعدم الفناء، وعدم القابلية للفساد؛ أيْ عدم العرضة للتفسُّخ والانحلال الجسمي، والأصل أو المنشأ الإلهي. ولكن الإسكندر الأكبر طلب من اليونانيين، ومن غيرهم، من رعايا مملكته، أن يعبدوه عبادة كاملة في حال حياته، كما تُعبَد الآلهة، وهي غائبة عن الأنظار. وقد استجاب له في ذلك أهالي أثينا وإسبارطة وغيرهما من المُدُن اليونانية الكبرى، وبهذا؛ كان الإسكندر الأكبر أول ملك يوناني يأمر بعبادته كإله، ويحظى بهذه العبادة - فعلاً - في حياته، تماماً كالفراعنة.

وما بدأه الإسكندر في حياته تكاثر وانتشر بعده في خلفائه؛ حيث إن «بطليموس» و«آرسينويس» نُودِيَ بهما آلهة مُخلِّصة مُنقذة من قِبَل رعاياهما اليونانيين والمصريين. وقد أصبح الحدّ الفاصل بين الألوهية والبشرية رقيقاً وضعيفاً، إلى درجة أن اليونانيين القدماء لم يعتقدوا أن البشر يمكن أن يصيروا آلهة فحسب؛ بل أعلنوا - أيضاً - أن الآلهة لم يكونوا - من قبلُ - إلا بشراً، ثم تألَّهوا بعد ذلك.

وبعد بضع سنوات - فقط - من موت الإسكندر، دافع «أوهيميروس» عن نظرية أصبحت تحمل اسمه، تقول: إن الآلهة جميعاً كانوا إمَّا ملوكاً أو أبطالاً خارقين حقيقيين من البشر.

وبعد الإسكندر الأكبر، أصبح العالم الإغريقي الروماني معتاداً على تأليه ملوكه، فالملوك الإغريق صاروا يُمثِّلون أنفسهم على العُملات المسكوكة بصورة الإله «زيوس» أو الإله «أبللو»، وكان أمراً

رائجاً أن يكون لملوك الإغريق وأباطرة الرومان تماثيلهم المنصوبة في المعابد، جنباً إلى جنب مع الآلهة الأخرى.

كما أصبح من الشائع أن نجد في الألفاظ اليونانية ألقاباً مثل «Theos» أيْ الله، و«Hyios tou theou» أيْ ابن الله، و«Soter» أيْ المُخلِّص، و«Kyrios» أيْ الرّبّ، تُطلَق على أباطرة الإغريق والرومان مثل الإمبراطور «أغسطس» والإمبراطور «قيصر» والإمبراطور «نيرون». وهناك مخطوطة يرجع عهدها إلى سنة 48 قبل الميلاد تتحدّث عن الإمبراطور «يوليوس قيصر» بصفته مظهر الله في أرضه وابن الإله «آريز» أو «أريس» من الإلهة «أفروديت»، وأنه المُخلِّص العام للحياة البشرية.[1]

أمَّا الإمبراطور الروماني «كلوديوس قيصر» الذي كان معاصراً للمسيح عيسى، فبالرغم من رفضه لأنْ يُصبح إلهاً إلا أن رعاياه البريطانيين أبوا إلا أن يُؤلِّهوه ويعبدوه في معبد خاصّ برهبة وخشوع، وقد هجا الشاعر الروماني «سينيكا» هذا التأليه لكلوديوس، مُسمِّياً إياه «نفخ كلوديوس». وهكذا؛ فقد سُجِّل الربط بين الانسان والظهور الإلهي بشكل خاص في حالة الحُكَّام.

---

(1) والإله أريس هو إله الشهوة والعربدة والحب والغرام، وهو يمثّل قمّة الذُّكُورة والفحولة ومتعة الجماع والمضاجعة، وهو - أيضاً - ابن إلهة الإغراء أفروديت، وعشيقها في الوقت نفسه، ومن اسمه اشتُقَّتْ كلمة «أيروتك»؛ أي الانتصاب والفحولة الجنسية في اللغات اللاتينية، وكلمة أريس أو عريس في اللغات السامية.

قُبيل العصر الذي عاش فيه عيسى، كتب الخطيب الروماني «شيشرون» عام 60 قبل الميلاد يقول «إن الإغريق في آسيا كانوا مُتأثّرين جداً بعدم قابلية حُكّامهم للفساد، لدرجة أنهم كانوا يقولون في كلّ إمبراطور من أباطرتهم إنه رجل إلهي، نزل من السماء، وهبط إلى إقليمهم».

أمَّا الشاعر الروماني «فرجيل»؛ فقد ربط عام 40 قبل الميلاد مجيء العصر الذهبي بميلاد طفل لقبه «الابن العزيز للآلهة».

وأمَّا الشاعر الروماني «هوراس»؛ فقد عدَّ الإمبراطور الروماني «أغسطس» مُتجسِّداً للإله «ميركوري»؛ أيْ عطارد، والجدير بالذِّكْر أن المسيح عيسى بن مريم وُلد في عهد الإمبراطور أغسطس هذا.

ويحكي لنا الشاعر الروماني «أوفيد» في قصيدته المُسمَّاة «التحوُّل»، والتي ألّفها سنة 7م حادثة زيارة الإلهَيْن «جوبيتير»؛ أيْ المُشتري، و «ميركوري» لأهل الأرض، مُتزييَيْن بزيّ ومظهر بشري، طالبَيْن فترة استراحة في الأرض ليحظيا بها في بيت «بوكيس» و«فيليمون» المتواضع.

لقد كان ظهور الآلهة على الأرض بثوب البشر هو المخزون الرئيس للميثولوجيا والقصائد اليونانية والرومانية منذ عهد الشاعر «هوميروس»، وما بعده، فموضوع زيارة الآلهة مُتّخذة شكلاً بشرياً يعود في قدمه إلى أقدم ملحمة إغريقية في التاريخ؛ حيث نجد العبارات التالية في ملحمة الأوديسة (17،484):

«ويل لك إذا هبط إله من السماء. نعم. والآلهة يأتون من بعيد بشكل غرباء، ويلبسون كلّ نوع من الأشكال، ويزورون المُدُن».

من تلك الأمثلة العديدة أصبح من الواضح أن الأساطير الدينية الإغريقية الرومانية - التي تتحدَّث عن آلهة تهبط لعالم البشر وتظهر على الأرض بشكل إنسان - قد سبق استخدامها لأجل تفسير حياة شخصيات تاريخية، كما أن هذه الأساطير وُجِدَتْ بزمن مُبكِّر بشكل يكفي لجَعْلها مُتاحة وموجودة في المتناول للاستفادة منها وتخصيصها للغرض المسيحي.[1]

أريوس والقرآن:

تُرى: هل انتصرت المسيحية الوثنية بقضاء الكنيسة على أريوس؟!

وهل تمكَّنت من مَحْو الرسالة المسيحية الحقيقية محواً تاماً من الوجود بإحراقها لجميع كُتُب أريوس وأناجيله؟!

للإجابة عن هذَيْن السُّؤالَيْن لابد لنا من الرجوع للنصوص القرآنية، التي تتحدَّث عن شخصية المسيح، لنجد أن نظرة القرآن لشخصية المسيح تتطابق تمام التطابق مع كلام أريوس وتعاليمه، عندها؛ لا يسعنا سوى السجود أمام عَظَمَة هذا القرآن ومصداقيته

(1) المسيحية وأساطير التجسُّد في الشرق الأدنى القديم، 17. وانظر أيضاً: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، 21 .

التي حفظت لنا رسالة المسيح عليه السلام بأصلها الحقيقي، ونقاءها الذي لا تشوبه شائبة من التحريف الوثني.

قال الله تعالى في محكم تنزيله:

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[2].

ذلك هو المسيح الذي قال عنه المولى عزّ وجلّ في كتابه الكريم:

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[3].

---

(1) المائدة: 72-75

(2) المائدة 17

(3) مريم: 34 - 36 .

لقد أخذ الله على نفسه عهداً بحفظ آياته ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، فما كان سبحانه ليسمح بضياع إنجيله الذي أنزله على نبيه عيسى بن مريم عليه السلام، فكان هذا القرآن الذي اختتم الله به رسالاته، والذي أنزله على خير خَلْقه وخاتم رُسُله، مُحَمَّد عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، هو الكتاب الحافظ للدِّين الصحيح، والمُثبّت للعقيدة الأمّ التي دعا إليها جميع الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه، فجاء القرآن مُصدِّقاً لها، ومُوثِّقاً لأصلها الحقيقي، بعيداً عن كلّ تحريف وتزوير.

قسطنطين وتوحيد الأمة:

يمكننا الاستنتاج - بكلّ ثقة - أن إعلان المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية كان بمثابة تثبيت وإقرار لديانة عبادة الأنثى المُقدَّسة في القارّة الأوروبية. فالمسيحية الجديدة - التي لم تكن تحمل من المسيحية الأمّ سوى الأسماء والألقاب - لم تكن سوى نسخة مُحسَّنة ومُنقَّحة من الوثنية الهيلينية، وهي أكثر قدرة على الاستمرار والبقاء، وأكثر قدرة على الإقناع؛ باعتبارها منتجاً حديثاً، قد تمَّتْ صياغته بعناية، وأخذت في اعتبارها سدّ الثغرات التي كانت تُمثِّل نقاط ضعف في الهيلينية الأمّ. بالإضافة إلى أنه قبيل تنصُّر قنسطنطين، كان الاتجاه السائد لدى الأباطرة الرومان هو توحيد المذاهب الوثنية في مذهب

واحد، وإعادة صياغة العقائد الوثنية المختلفة في عقيدة مُوحَّدة، من قبيل التَّوجُّه إلى وحدة ثقافية شاملة لدى سُكَّان القارَّة الأوروبية، بعد أنْ تمَّ توحيدهم سياسياً.يقول الدكتور السيد الباز العريني: «سبق الإشارة إلى ما حَدَثَ في أثناء القرن الثالث الميلادي من أن العالم الوثني أخذ يتَّجه رويداً رويداً إلى التفكير في عبادة إله واحد. وكان اعتراف أورليان - رسمياً - بعبادة الشمس يُعَدُّ ذروة هذا الاتجاه، نَظَرَاً لأهمية الديانة الواحدة التي يُقبل الناس على اعتناقها في توطيد وحدة الإمبراطورية. ولم يكن دقلديانوس بأقلّ اعتقاداً فيما يترتَّب على ديانة رسمية من نتائج سياسية هامّة، غير أنه كان شديد التَّحفُّظ في خطواته، وحملاته؛ إذْ إنه تولَّى بنفسه تقديم القرابين لآلهة مُتعدِّدة، ومع ذلك؛ اختصَّ بعبادة الإله «جوبيتير»، وكان يأمل في أن تكون (عبادة جوبيتير) الديانة الرسمية للدولة»[1].

نجح قنسطنطين - من خلال وثنيته المسيحية الجديدة - في تحقيق الوحدة الدينية التي كان يصبو إليها سَلَفَاهُ دقلديانوس، وأورليان، وذلك بعد أن تمكَّن من توحيد الإمبراطورية سياسياً، فبدأت تماثيل الصليب ورموزه تأخذ مكانها في المعابد الوثنية إلى جانب تماثيل جوبيتير وأبللو والإلهة الأمّ العظمى إلهة الشمس، وغيَّرت أفروديت اسمها؛ ليُصبح مريم العذراء. وتدريجياً؛ بدأت المعابد الوثنية ذاتها

---

(1) تاريخ أوروبا العصور الوسطى، 41 .

تتحوَّل إلى كنائس، مع احتفاظها بالكثير من تماثيلها ورموزها، بل، وحتى شعائرها، وترانيمها الوثنية القديمة، اللَّهمَّ عدا استبدالها لفظ «جوبيتير» بلفظ «يسوع».

لقد كانت الكنائس تُقام على أنقاض المعابد الوثنية، بل كانوا يكتفون بتطهير المعابد القديمة، أو إضافة بعض اللمسات عليها من أجل تحويلها إلى كنائس.

وإلى يومنا هذا نجد آثار هذه الوثنية ماتزال كما هي في الفنون الزخرفية للكنائس، فالمقابر مازالت تُزيَّن بالطواويس والدلافين وشتى أنواع الطيور والأسماك، وهي جميعها رموز وثنية، بل وفي بعض الكنائس والكاتدرائيات نجد صنم المسيح منحوتاً ومحاطاً برموز وثنية كالقمر والشمس، وهو واقف بينهما.

وفي الوقت الذي يعترف فيه الأب «دولاهاي» بالتشابه الشديد بين الشعائر المسيحية وشعائر عبادة الإله الفارسي «ميثرا»، نجد أنه من بين الآثار المُكتَشَفَة في بلاد فارس، والموجودة حالياً في متحف اللوفر، تمثال لأتباع ميثرا، نراهم فيه يتناولون الخبز والنبيذ.

ويصف الكاتب الفرنسي «فرانس كومون» في مجلّة علم الآثار لعام 1946م (193) هذا الأثر قائلاً: نَظَرَاً لأن لحم الثور كان صعب المنال - أحياناً - فقد اضطُرَّ أتباع الإله ميثرا إلى استخدام الخبز والنبيذ مكان

اللحم والدم، وكانوا يرمزون - بذلك - إلى لحم معبودهم ميثرا ودمه[1].

ولذلك؛ فقد ألَّفوا على لسان المسيح قوله بعد أن أخذ قرصاً من الخبز، وكسره، وناوله لتلاميذه: «خُذُوا، كُلُوا، هذا هو جسدي، ثم أخذ الكأس (الخمر)، وشكر، وأعطاهم قائلاً: اشربوا منها كلّكم؛ لأن هذا هو دمي»[2].

ثم أسهبوا في شرح ذلك عندما وضعوا على لسانه قوله: «الحقّ الحقّ أقول لكم إنْ لم تأكلوا جسد ابن الإنسان، وتشربوا دمه، فليس لي حياة فيكم، مَنْ يأكل جسدي، ويشرب دمي، فله حياة أبدية، وأنا أُقيمه في اليوم الأخير؛ لأن جسدي مأكل حقّ، ودمي مشرب حقّ، مَنْ يأكل جسدي، ويشرب دمي، يثبت فيَّ، وأنا فيه»[3].

ومازال هذا الطقس الوثني يُقام - حتى الآن - في الكنائس، وفي كلّ قدَّاس؛ حيث تعتقد الكنيسة أن التهام لحم المسيح ودمه سيُكسب المؤمنين صفات خارقة، وفضائل غير بشرية خالدة.

ويقول فرانس كومون في ذلك: «إن نبيذ القربان المسيحي هو بديل للنبيذ الذي كان يُقدَّم في أعياد «باخوس» الإله الوثني القديم، وإنه شراب يضمن الخلود في العالم الآخر».

---

(1) تماماً كما يرمز المسيحيون اليوم إلى لحم المسيح ودمه بالخبز والخمر.

(2) إنجيل متّى، 26 .

(3) إنجيل يوحنا، 6 .

ويقول العالم الفرنسي «شارل غينيبير» في كتابه «عن المسيح»: «إن علماء الآثار وجدوا نصوصاً على ورق البُردي من مصر القديمة تدلُّ على أن دم الإله أوزيريس كان يتحوَّل إلى خمر».

وكذلك يقول «فرانز كومون» في كتابه «الأديان الشرقية القديمة»: إن أتباع «أتارغاتيس» - المعبودة السورية القديمة - كانوا يلتهمون السمك الذي يُقدّمونه لها، ثم ينشدون أنهم - بذلك - يتناولون لحم معبودتهم.

أمَّا عن عيد الميلاد الذي يحتفلون به في الخامس والعشرين من ديسمبر؛ فهو اليوم نفسه الذي كان الوثنيون القدماء يحتفلون فيه بموت الإله «أتيس». وهو اليوم نفسه - أيضاً - الذي كان الفُرْس القدماء يحتفلون فيه بموت الإله «ميثرا»، الذي كان يُعبَد قبل المسيحية بأكثر من ستمئة عام، وقد كتبت الموسوعة البريطانية في ذلك ما يلي: « إن «ميتراس» أو «ميثرا» ابن الله مات في الخامس والعشرين من ديسمبر، مات مُخلِّصاً للبشرية من خطاياها، وكان له أسماء كثيرة، مُخلِّص، ومُنقذ، و.....، مات، ثم صعد أمام تلاميذه، وهم يبتهلون ويتضرّعون إلى الله. ويُقيم أتباعه الاثنا عشر في ذكراه عشاءً يزعمون أن الخبز يتحوَّل إلى جسده، والخمر إلى دمه».

أمَّا عن السِّرّ الذي يكمن في هذا اليوم، الخامس والعشرين من شهر ديسمبر؛ فيتمثَّل في كونه اليوم الوحيد من أيام السنة، الذي

تتساوى فيه ساعات الليل مع ساعات النهار. فهو يومٌ في غاية القداسة عند عَبَدَة الكواكب؛ حيث يعتقدون أنه اليوم الذي تمَّ فيه الاتصال الجنسي بين إلهة الشمس وإله القمر، إنه اليوم الذي اكتمل فيه ثالوث الآلهة الكوكبية، عندما لقَّح إلهُ القمر إلهةَ الشمس؛ لتحبل بالإله الابن، الذي سينزل إلى العالم مُخلِّصاً للبشر.

والإله الابن، أو المُخلِّص، كان دائماً ما يُوصَف بإله الخصب والمطر والزرع، وهي الصفة التي أُطلقت على «دموزي»، و«البعل»، و«هبل»، و«أدونيس»، و«حورس»، و«ميثراس»، وغيرهم، ولذلك؛ فإن الاحتفال بهذا اليوم عند الوثنيين كان يتمثَّل في تقديس الأشجار والزرع والخضرة، وهي الطقوس التي نجدها مطابقة تماماً لعيد الميلاد المسيحي، الذي لا يمكن أن يكتمل الاحتفال به دون تزيين شجرة الأرز، أو الصنوبر.

أمَّا عن يوم الأحد الذي يُعَدُّ العيد الأسبوعي الرسمي للمسيحيين، فهو اليوم الذي كان يحتفل فيه عَبَدَةُ الأنثى المُقدَّسة بمعبودتهم العُظمى إلهة الشمس، ولذلك يُسمَّى Sun Day ؛ أيْ يوم الشمس، وهي الديانة التي كان قنسطنطين كاهنها الأعظم، والتي استعارت المسيحية صليبها لتجعله شعارها الرسمي.

وأمَّا عن مكان ولادة المسيح؛ فيعترف القدّيس «جيروم» بأن المسيح وُلد في المكان نفسه الذي وُلد فيه أدونيس، وأنَّ بيت لحم كانت

- في تلك الأيام - تُظلّلها غابة مُقدَّسة تُسمَّى غابة أدونيس؛ حيث كان الناس يبكون أدونيس عندها. بل إن المسيح وُلد في المغارة ذاتها التي وُلد فيها أدونيس.

ويعترف - أيضاً - بأن اختيار هذه المغارة بالذات جاء في سياق الحملة التي قام بها مسيحيُّو قنسطنطين لتحويل المعابد وأماكن العبادة الوثنية وشعائرها إلى شعائر وعبادات مسيحية.

الفصل الثالث

الأنثى المُقدَّسة بين الأمومة والإغراء

يجدر بنا - بعد ذلك - أن نتساءل عن السبب وراء تمسُّك الكنيسة بضرورة قيام الراهبات وفتيات الترانيم بالدور الرئيس في إحياء حفلات ممارسة الطقوس التَّعبُّدية، بل إننا نكاد لا نجد ديانة من الديانات المعروفة - الآن - تستخدم الإناث للقيام بأدوار رئيسة داخل معابدها، وأثناء تأدية طقوسها سوى الديانة المسيحية.

إن دور الراهبات اللاتي تقيم فيها - بشكل دائم - أولئك الفتيات اللاتي وهبنَ أنفسهنَّ للمسيح مدى الحياة، لها مغزى عميق.

وكذلك؛ فإن التواجد الإلزامي لفتيات الترانيم على منصَّة الصلاة في الكنيسة، كي يؤدّينَ الترانيم، ويرقصنَ، ويترنَّحنَ أمام المُصلِّين له المغزى نفسه.

ولكي نفهم هذا المغزى لابد أن نعود للطقوس التي كانت تُمارَس في معابد الأنثى المُقدَّسة.

في معابد الأنثى المُقدَّسة، كان أكثر الطقوس التَّعبُّدية قداسة هو الجماع والاتصال الجنسي بين الراهبات اللاتي وهبنَ أنفسهنَّ للإلهة العظمى، واللاتي كُنَّ يقمنَ - بشكل دائم - داخل المعبد، وبين المُصلِّين والمُتعبِّدين الذين يأتون لطلب الاتحاد الروحي مع إلهة الآلهة، والذي لا يحدث إلا عند اتحادهم الجسدي الكامل مع راهباتها، وخصوصاً حينما يبلغ بهم هذا الاتصال إلى قمَّة الذروة والرعشة الجنسية التي تسبق عملية الإنزال.

وكان قبل أن يدخل المؤمن بإحدى الراهبات، يقوم بأداء طقوس وذِكْر صلوات وترانيم مُعيّنة، ثم - بعد ذلك - يقوم بتقديم قربان بين يدَيْ الراهبة يكون بمثابة ابتهال للإلهة العظمى كي تتكرَّم عليه باتحادها الروحي مع راهبتها أثناء قيامه بمضاجعتها، ليحصل على البركة والطهارة الروحية من خلال هذا الاتصال المُقدَّس.

وبمقدار ما يكون قربانه عظيماً يكون حظّه أوفر في الانغماس الروحي الكامل داخل روح الإلهة الأمّ. فالعملية الجنسية هذه كانت بمثابة صلاة وعبادة، يتمُّ بواسطتها الاتحاد الجسدي والروحي بين كائن بشري، وهو الرجل، وكائنة إلهية، وهي الأنثى، التي كانت تُمثِّل جزءاً من الإلهة الأنثى العظمى، ربّة الأرض والكون.

وبخلاف الراهبات، كان لزاماً على كلّ فتاة في المجتمع أن تقوم بهذه العملية الجنسية التَّعبُّدية، ولو لمرَّة واحدة في حياتها على الأقلّ.

فكان مُحرَّماً على الفتاة البِكْر أن تفضَّ بكارتها خارج المعبد؛ حيث كان يجب عليها إن أرادت فضَّ بكارتها أن تدخل إلى المعبد، وتتَّخذ لنفسها مكاناً في زاوية من زواياه، مُنتظرة أحد المُصلِّين أن يأتي إليها، ويقوم بأداء الطقوس نفسها، ثم يضع بين يدَيْها قرباناً عبارة عن مبلغ مُعيَّن من المال، لا يكون من حقّها حمله معها خارج المعبد، فهو مُقدَّم - أصلاً - للإلهة العظمى، وَقْف على معبدها.

ثم يقوم - بعد ذلك - الشخصان بأداء الترانيم المُغنَّاة قبل وأثناء التصاق جسدَيْهما واتحاد روحَيْهما مع روح الإلهة الأمّ في عملية جماع مُقدَّس مبارك.

إن القداسة التي كانت تحملها تلك الممارسات الجنسية، جعلت منها عملية شرعية لا تحمل أيَّ معنى للرذيلة، أو الانتقاص، بل إنها كانت رمزاً للشرف والطهارة والإيمان والروحانية.

فالقربان الذي يُقدّمه الإنسان لإلهه هو رمز للخضوع والعبودية والانكسار أمام الإله. وفي معابد الأنثى المُقدَّسة، كان الرجل هو الذي يُقدّم القربان للمرأة كنوع من إعلان عبوديته لها، وألوهيتها له.

والقربان يجب أن يكون نفيساً غالياً ذا قيمة اعتبارية عالية، بقدر تقديس الإنسان لإلهه، ففي المجتمعات الرعوية نجد أن القربان يُقدَّم

على شكل ذبائح حيوانية تُنتَخَب من أفضل ما في القطيع، وأكثرها غلاء وقيمة، وفي المجتمعات الزراعية يُقدّم القربان من أبكار المحاصيل وأوائل القطاف الذي يكون - عادة - أكثرها غلاء، ولذّة، ونُضجاً.

أمَّا المال (النَّقْد)؛ فهو أغلى وأرقى أنواع القرابين على الإطلاق، سواء كان المجتمع رعوياً، أو زراعياً، فالإنسان لا يحصل على المال إلا بعد أن يبذل في مقابله كلّ شيء، جهده، وعرقه، ودمه، ووقته، وجميع مهاراته، وقدراته العضلية والعقلية، بل - وربما - كرامته، وعزَّة نفسه.

وهنا؛ كان قربان المال الذي يُقدّمه الرجل بين يدَيْ معبودته متنازلاً عن أعزّ ما لديه، عن ثمرة عمله وكفاحه، ليُعلن عن أقصى درجات العبودية لها، والخضوع المُطلَق لسلطتها الألوهية الكاملة على جميع مُقدّرات حياته.

لقد كانت فتيات المعبد هُنَّ أكثر الفتيات احتراماً من المجتمع، وتقديراً وعُلُوّ شأن، فهنَّ الإلهات اللاتي تُقدَّم بين أيديهنَّ أرقى أنواع القرابين، وبالرغم من أن هذه العبادة سُمِّيَتْ - فيما بعد - بالبغاء المُقدَّس، إلا أن البغاء لم يكن - في ذلك الوقت - إلا ضرباً من تشريف المرأة، وإجلالها، واحترامها، بل وعبادتها، مُتمثِّلة فيما يُقدَّم بين يدَيْها من قربان لا يُقدَّم لغيرها من الآلهة.

وبهذا المعنى؛ كان البغاء المُقدَّس هو أكثر تشريفاً للمرأة، وإعلاء لقدرها من الزواج الأُحادي الطبيعي، ففي الزواج يُقدِّم الرجل

للمرأة قربانه على شكل مهر (صداق) مـرة واحـدة في العمـر، أمَّـا في البغاء المُقدَّس؛ فيتمُّ تقديم القربان للمرأة في كلّ ليلة.

لم ينظر الرجل إلى المرأة على أنها كائن بشري طبيعي، ينتمي لـنفس الفصيلة الإنسانية التي ينتمـي هـو إليهـا، فتلـك الـصفتان الخارقتـان اللتان كانت تمتلكهنَّ المرأة، لطالما شكَّلت للرجـل لغـزاً صـعب عـلى عَقْله فَهْمه، أو إدراك كوامن أسراره. أمَّـا الـصفة الأولى؛ فهـي صـفة الأمومة، وما يتبعها مـن ألغـاز الحمـل، والـولادة، وإنتـاج الحليـب، والإرضاع، ثم - بعد ذلك - ما تتمتَّـع بـه حاسَّـة الأمّ الـسادسة مـن القدرة على التَّنبُّؤ الغيبي بالأخطار التـي قـد تقـع لمولودهـا، وقيامهـا - على إثر ذلك - بتصرُّفات استباقية لحمايـة ابنهـا، واحتـضانه حتـى يشتدَّ عوده، كلّ تلك الصفات كانت - بالنـسبة للرجـل - نوعـاً مـن الخوارق التي جعلتْهُ يُضفي على المرأة طابعاً إلهياً.

وممَّا يزيد هذا الطابع تأكيداً تلك الصفة الثانية من صفات الأنثـى، والتي لا تقـلُّ في غموضـها وأسـطورية قـدراتها الخارقـة عـن صـفة الأمومة، إنها صفة الإغراء الجنسي، تلك القوة اللامرئية التي تصدرها المرأة من ملامح وجهها، وتضاريس جسدها، ونغمة صـوتها، وكأنهـا تُصدر أشعَّة كونية كهرومغناطيسية، مـا إنْ تـصيب بهـا قلـبَ الرجـل حتى تكبّله بحبال عشقها، وتغرز في لحمه كلاليـب غرامهـا، وتـسوقه بسلاسل سِحْرها، زاحفاً خلف ذيول ثوبها، مُتتبِّعاً آثار أقدامها كعبـد، لا يزيده التعذيب إلا حباً في سيده.

وفي ذلك انقسم العالم في عبادته للأنثى إلى فسطاطَيْن، ففي الجزء الشرقي من العالم، والذي كانت الثقافة الهندية خير مثال له، نجد التركيز على الجانب الأمومي للأنثى كان هو الاتجاه الغالب والمُهيمن على الحياة الفكرية والدينية. وكانت عبادتهم للبقرة هي إحدى مظاهر هذا الاتجاه. فالبقرة لا تحمل في هيئتها أيّ معنى للإغراء الجنسي، في الوقت الذي كانت تحمل فيه كلّ معاني الأمومة.

وبالرغم من أن الشرق لم يخلُ - تماماً - من مظاهر البغاء المُقدَّس، إلا أننا لا نجد في التراث الأدبي الشرقي ذلك التركيز الشديد على العملية الجنسية بمعناها العضوي، والانغماس المطلق في الممارسة الجنسية بشكلها الجسدي الحيواني (الأيروتيكي)، الذي نجده هو الغالب والسائد عند سُكَّان الجزء الغربي من العالم. بل إن الأدب الشرقي كان يميل - بشكل واضح في تعامله مع الجانب الإغرائي للأنثى - إلى الوصف الخارجي البريء، والغزل العذري، الذي كان يقف عند حدود الكلمة، ولا يتعدَّاها. كتب الزعيم الهندي المعروف «المهاتما غاندي» مقالاً في مجلة «باهافانز جورنال» عدد نوفمبر سنة 1963م، بعنوان «أمي البقرة» قال فيه: «إن حماية البقرة التي فَرَضَتْهَا الهندوسية هي هدية الهند إلى العالم، وهي إحساس برباط الأُخُوَّة بين الإنسان وبين الحيوان، والفكر الهندي يعتقد أن البقرة أمّ للإنسان، وهي كذلك في الحقيقة، إن البقرة خير رفيق للمواطن الهندي، وهي خير حماية للهند... عندما أرى بقرة لا أعدُّ نفسي أرى حيواناً؛ لأني

أعبد البقرة، وسأدافع عن عبادتها أمام العالم... وأمي البقرة تَفْضُلُ أمي الحقيقية من عدَّة وجوه، فالأمّ الحقيقية تُرضعنا مدّة عام، أو عامَيْن، وتطلب منا خدمات طوال العمر نظير ذلك، ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائماً، ولا تطلب منا شيئاً مقابل ذلك سوى الطعام العادي. وعندما تمرض الأمّ الحقيقية تُكلّفنا نفقات باهظة، ولكنْ؛ في حال مرض أمنا البقرة لا نخسر شيئاً ذا بال. وعندما تموت الأمّ الحقيقية تُكلّف جنازتها مبالغ طائلة أيضاً، وعندما تموت أمّنا البقرة تعود علينا بالنفع، كما كانت تفعل في حياتها؛ لأننا ننتفع بكلّ جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرون. وأنا لا أقول هذا لأُقلِّل من قيمة الأمّ، ولكنْ؛ لأُبيِّن السبب الذي دعاني لعبادة البقرة»[1].

وهناك أسطورة هندية قديمة تروي محادثة جرت بين خنزير وملك؛ حيث ذهب الخنزير يوماً إلى ملك وهو يُصلِّي أمام البقرة، ويُعلن لها خضوعه، وتبجيله لقدرها، فقال له الخنزير: أيّها الملك، متى ستعبدني؟!

فثار الملك قائلاً: اخرجْ، وإلا قتلتُكَ!

بكى الخنزير، وانتحب، وقال: أنا أعرف أنكَ تحبُّ لحمي فقط، فأنا أموت لأقدّم لكَ ما تحبُّ، ومع هذا؛ فإنك تعبد البقرة، ولا تعبدني

فأجاب الملك: إنكَ أحمق، أيها الخنزير، إنني آخذ لحمكَ بعد موتكَ، أيْ بعد أن تكون في حال لا تستطيع أن تمنح، ولا أن تمنع، وسرعان ما

---

(1) أديان الهند الكبرى، 36.

ينتهي لحمكَ، أمَّا البقرة؛ فإنها تُقدِّم لي طعامي طائعة، وهي على قيد الحياة، وكذلك تستمرُّ في تقديمه من يوم إلى يوم دون نهاية. إنها أعظم رمز للإيثار، ولذلك؛ فأنا أعبدها.

إن تقديس الشرقيين للجانب الأمومي في المرأة أدَّى إلى انتعاش المُؤسّسة الزوجية في بلاد الشرق على حساب مُؤسّسة البغاء المُقدَّس التي كانت منتعشة بين سُكَّان أوروبا وسواحل المتوسّط نَظَرَاً لتقديسهم للجانب الإغرائي من شخصيتها.

والمؤسّسة الزوجية هي الإطار الوحيد الذي تستطيع المرأة أن تمارس - من خلاله - أمومتها الكاملة؛ حيث تُوفِّر لها هذه المؤسسة كافة الوسائل والأدوات والإمكانات المعيشية التي تستطيع بواسطتها التَّفرُّغ التامّ للقيام بدورها الأمومي الكامل. أمَّا الرجل في المؤسّسة الزوجية؛ فهو الذي يقوم بجميع الأدوار الأخرى، من تمويل مادّي، ومجهود عضلي، وحراسة وحماية أمنية، في مقابل حصوله على رشوة صغيرة جداً، وهي حقّ القوامة، الذي هو - في الحقيقة - مَغْرَم، أكثر من كونه مَغْنَماً.

ونجد هذه الأدوار داخل المؤسّسة الزوجية مُوزَّعة بدقَّة ووضوح في تلك الصلاة المشهورة التي يتلوها الهنود بين يدَي إلهتهم البقرة، والتي تقول عباراتها: «أيتها البقرة المُقدَّسة. لكِ التمجيد والدعاء. في كلّ مظهر تظهرين به أنثى. تدرِّين اللبن في الفجر، وعند الغسق.

تلدين عجلاً صغيراً. ترعين ثوراً كبيراً. فلنعدَّ لكِ مكاناً واسعاً نظيفاً يليق بكِ. وماء نقياً تشربينه. لعلَّكِ تنعمين بيننا بالسعادة».

فبينما يتحدَّد دور المرأة داخل المؤسّسة الزوجية في الجزء الأول من هذا النشيد، نجد أن جزءه الأخير يصف - تماماً - الدور الذي يجب أن يقوم به الرجل.

ولكنْ؛ من خلال المؤسّسة الزوجية، تفقد المرأة أكثر شهواتها إمتاعاً، وتكبت أعظم غرائزها إلحاحاً، عندما لا تتمكَّن من استخدام سلاحها الإغرائي الفتَّاك استخداماً كاملاً.

فالإغراء الجنسي - الذي هو - بالفعل - أكثر أسلحة المرأة فتكاً بالرجال - نجده وقد تحجَّمت قدراته داخل المؤسّسة الزوجية، التي فرضت على المرأة من القيود ما جعلت سلاحها الإغرائي محصور الفعالية ضدّ رجل واحد فقط، وهو الأمر الذي يُسيء - بشدّة - إلى غريزتها الاستعلائية العظمى، والتي ما تفتأ تدفع بها للسعي الدؤوب في سبيل رؤية تلك الجموع الغفيرة من الأعين وهي مشدوهة مُبحلقة في محاسنها، وتلك الحشود المتزاحمة من الأصوات وهي تصدح بكافّة عبارات الغزل وقصائد الهيام في جمال قسماتها، وفتنة تضاريسها، وتلك الجماهير المُتجمهرة من القلوب والأرواح الأسيرة في زنازين عشقها، ومعتقلات غرامها، وتلك الصفوف الطويلة من الشوارب واللِّحى

التي تنتظر دورها في تقديم قرابين الخضوع وصلوات الرجاء كي تحظى بقُربها، وتفوز بشيء من وُدِّها.

وبينما التزمت المرأة الشرقية بالمؤسّسة الزوجية لتختار - من خلالها - القيام بدورها الأمومي الكامل، مُضحِّية - في سبيل ذلك - بغريزتها الإغرائية، نجد المرأة الغربية قد اختارت الاتجاه المعاكس تماماً، واسترسلت في الإشباع الكامل لغريزتها الإغرائية البغائية؛ لدرجة أصبح فيها البغاء والإغواء الجنسي هو الصفة الأكثر ملازمة لشخصية المرأة في الفكر الغربي. بل إن الثقافة الغربية قد ذهبت إلى أكثر من ذلك، عندما جعلت صفة البغاء هي أكثر الصفات بروزاً في شخصية إلهة الغرب العظمى، التي هي أكثر معبوداتهم قداسة «أفروديت».

وبخلاف البقرة الهندية؛ كانت أفروديت، أو فينوس، دائماً ما يتمُّ تصويرها على هيئة امرأة شديدة الجمال والجاذبية، ممشوقة القوام، بارزة الثديَيْن، ناعمة الملمس، ممتلئة الخدَّيْن، دقيقة الثغر، تظهر - غالباً - شبه عارية، وقد برزت أكثر تفاصيل جسمها إثارة للشهوة.

وفي أقدم الأعمال الأدبية لدى الأوروبيين، تُصوِّر الإلياذة في نشيدها الرابع عشر أفروديت على أنها الإلهة التي تقهر جميع الرجال، بل وجميع الآلهة الذُّكُور بقوة الشهوة.

وقد وصفها الشاعر اليوناني «هزيود» بأنها تتمتَّع بدلال الغيداء، وسحر الأنثى ومكرها في الوقت نفسه، وأنها - أينما حلَّت - تشيع

البهجة والحبّ والفرح؛ حيث تتميز شخصيتها بالوداعة والرقة والنعومة وخفة الظلّ، الذي يضفي نوعاً من الدفء الأنثوي وحرارة الإغراء والإثارة.

وقد صُوِّرَتْ أفروديت في أدبيات أعظم أدباء اليونان مثل «هوميروس» و «ممنوموس» و «سافو» على أنها المثل الأعلى للجمال والشباب والجنس، وأن سلطانها يشمل المخلوقات جميعها، وأنها إلهة الآلهة، التي ليس للحياة قيمة بدونها.

وأمَّا لفظ «أفروديت» باليونانية؛ فيعني الرغوة أو الزبد «Aphro». ولذلك قصة أسطورية تتحدَّث عن تفاصيل ولادة أفروديت؛ حيث يُحكَى أن أحد الآلهة قد قطع عضوه التناسلي، وقذف به في البحر مع الدم والمني، فتفاعل هذا العضو مع مياه البحر؛ لتنتج تلك الرغوة التي عُرِفَتْ بزبد البحر. ومن هذا الزبد - الذي يُمثِّل فوران الرغبة - تكوَّنت الإلهة أفروديت؛ رمز الجنس والتناسل.

ويكمل «هزبود» هذه الرواية، فيذكر أن أفروديت عندما خرجت من البحر كانت أول أرض تضع عليها أقدامها هي جزيرة قبرص، فكانت ما أن ترفع قدمها وهي تمشي حتى ينبت العشب الأخضر في موطئ ذلك القدم، كدليل على قوة تأثيرها في النماء والإخصاب.

بالرغم من أن أفروديت كانت متزوجة من الإله «هيفايستون»؛ إلا أنها كانت كثيرة العُشَّاق والأخدان، فلم تتعرَّف على إله

إلا ضاجعته، ولم يعجبها منظر ذَكَر إلا أغوته. فقد خانت زوجها مع الإلـه «أرس» إلـه الحـرب والعنـف والخـشونة، وكـذلك مـع الإلـه «ديونيزوس» إله الشهوة والعربدة والشبق الجنسي، والإلـه «هـرمس» رسـول الآلهـة وحلقـة الوصـل بـين الـسماء والأرض، والـذي سـمَّاه المسيحيون - فيما بعد - بالروح القُدُس، والإله «بوسيدون» إله البحـر وفوران الزبد، الذي يدلُّ على قوة الفحولة والتلقيح، والـذي تولَّـدت منه أفروديت.

أمَّا قصتها المعروفة مع الفتى «أدونيس»؛ فيُضرب بها المثـل، وهـي دليل على أنها كانت متعدِّدة الأزواج.

ونظام تعدد الأزواج هذا كان معروفاً في التاريخ الأوروبي القديم؛ حيث عُرِفَ - اصطلاحاً - باسـم «الهيتيريـة»، وهـو نظـام ينفـي كـل إمكانية لتقديم الدليل على النسب الأبوي، فكان تقرير النسب يتمُّ من جهة الأم.

وظلّ هذا النوع من الزواج المشاع يُشكِّل النظام الـرئيس للعلاقـة التناسلية داخل المجتمع؛ حيث تحظى - من خلاله - المرأة برعاية أكبر عدد من الرجال لها، وقيامهم عـلى تـوفير احتياجاتهـا، ومتطلّباتهـا، في مقابل تفرُّغها التامّ لعملية الإنجاب، واحتضان الأطفال، وقد أسهب «أنجلز» في شرح وتفـصيل هـذا النـوع مـن الـزواج في كتابـه «أصـل

العائلة». ومايزال الانتساب إلى الأمّ نظاماً معمولاً به في الغرب حتى يومنا هذا.

وكان من طقوس عبادة أفروديت أنْ تضع النساء حزاماً معروفاً لدى عَبَدَتِهَا يُسمَّى بحزام أفروديت السِّحْري، ما إنْ تضعه الفتاة حول خصرها حتى تصبح موضعاً للاشتهاء والإغراء، فيتهافت عليها العُشَّاق، وتقع في أسرها قلوب الرجال.

بل إنه من الطقوس المشهورة في عبادة أفروديت أن تهبَ النساء أجسادهنَّ لأفروديت؛ كي تستخدمها أثناء الحرب للدفاع عن الوطن، فتحكي الروايات أن نساء كورينثوس قد وهبنَ أجسادهنَّ لأفروديت أثناء الغزو الفارسي لأوروبا، وذلك بأن أُعلن للجنود وقادة الجيش الوطني بأن أجسادهن ستكون هدية ومكافأة لأفراد الجيش في حال انتصارهم على الغزاة، ينهلون منها أنَّى شاءوا.

والابن المشهور لأفروديت «أيروس» أو «أيرس» - الذي عَبَدَهُ اليونان بصفته ربّ العشق والغرام والفحولة الجنسية، والذي يملك في يده سهام الحبّ، التي ما إنْ يرمي بها قلب إنسان إلا وقع صريع الحب والغرام - فقد اختلفت الروايات كثيراً في نَسَبه الأبوي نَظَراً لكثرة عُشَّاق أمّه.

وشخصية أيروس اقترنت - دائماً - بصفات الرغبة والإثارة الجنسية، والتي هي امتداد طبيعي لصفات والدته.

يُروى أن أيروس وقع في غرام فتاة حسناء اسمها «سيكي»، فبات يُراودها عن نفسها، وهي تتمنَّع، فنصب لها فخّاً ليغويها؛ حيث دفع بها إلى قصر كبير، ما إن دخلته حتى وجدت أمامها تلك الموائد الطويلة، وقد وُضِعَتْ عليها أشهى أنواع الطعام واللحوم والفواكه، التي لا يستطيع أحد مقاومة شهيته لها، وبين كلّ طبق وطبق وُضِعَتْ تلك الكؤوس الفخمة المُعبَّأة بأصناف الخمر والنبيذ المُعتَّق ذي الطعم الأسطوري. ومن جوانب القصر تفوح رائحة البخور النفَّاذة، التي تختلط مع تلك النغمات الهادئة من الموسيقى الحالمة. لم تستطع سيكي مقاومة هذه الأجواء المثيرة، فأخذت تنهم من أصناف الطعام بشراهة، وترشف الكأس وراء الآخر، دون وعي، حتى إذا امتصَّت عروقُهَا ما كان يحتويه هذا الطعام من طاقة كبيرة، مُدعَّمة بما كان يحتويه ذلك الخمر من كحول دفع بها لبلوغ الاستثارة الجنسية القصوى، وبعد أن تمكَّنت الشهوة من كلّ جزء في جسدها، تمثَّل أمامها أريس في هيئته الفحولية المثيرة، ليقتادها إلى غرفة النوم الفخمة المفروشة بمفارش الحرير الناعم، حتى أصبحت في كامل الجاهزية والاستعداد لمضاجعته.

من هنا؛ كان الارتباط وثيقاً في الثقافة الأوروبية بين الجنس وبين الطعام والخمر، حتى أصبحت الصفة المُشتقَّة من اسم أفروديت «أفروديا تيكي» أو «أفروديزياكي» تُطلَق على كلّ ما يثير الشهوة، ويُشعل الرغبة الجنسية من طعام وشراب، بل إن مصطلح «العقاقير الأفروديزياكية» أصبح مقترناً - تماماً - بالعقاقير الجنسية.

أمَّا مصطلح «الآيروسية»؛ فهو مطابق - تماماً - للأفرودياتيكية، غير أنه يتَّخذ المعنى الذُّكُوري للدلالة.

هكذا نجد أن شخصية الأنثى المُقدَّسة كان لها جانبان متناقضان، جانب الرجاء وجانب الخوف. فبينما كان جانب الرجاء المُتمثّل في معاني الأمومة هو الجانب الغالب في الثقافة الشرقية، نجد أن مصطلح «الأنثى» عند الغربيين يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك السلطة الجنسية الإغوائية المُدمّرة، التي - دائماً - ما تكون مصحوبة بالمكر، والخبث، والغدر، والخيانة، وتحطيم قلوب الرجال، واستعبادهم، وأَسْر عقولهم، وأفئدتهم. وهي النظرة التي تبنَّتْهَا الكنيسة؛ لنجدها - دائماً - ما كانت تصف المرأة بأنها سبب الفساد والدمار، وسلاح الشيطان الأقوى، وأنها الطريق الأقصر المؤدّي إلى جهنّم.

ولم تتوانَ أجهزة المخابرات الغربية - يوماً - في استخدام هذا السلاح الأنثوي الفتَّاك، فكانت المرأة هي المفتاح الاستخباراتي السِّحْري الذي يفتحون به أبواب وقلوب السياسيين، ويحصلون - من خلاله - على أكثر الأسرار العسكرية والاستراتيجية خطورة وسرِّيَّة.

إن ذلك الخوف والرعب من القوة الإغرائية الفتّاكة التي تمتلكها الأنثى لم يكن مقتصراً - فقط - على النظرة الغربية للمرأة، بل إن الشرقيين كانوا على دراية كاملة بمدى الدمار الذي يمكن أن تُحدثه هذه القوة بالمؤسّسة الزوجية، ومن ثمَّ؛ بالمجتمع كَكُلّ.

يقول العلامة «رادها كرشنن» النائب السابق لرئيس الجمهورية الهندية في مقال كتبه في مجلة «ثقافة الهند»: إن المرأة الهندية في عصر بوذا لم تكن منعزلة، ولكننا - مع ذلك - نجد بوذا يتردَّد كثيراً في قبولها لتكون من أتباع دينه، وقد سأله مرّة أحد خاصّته وهو ابن عمّه «آنندا»:

- كيف نُعاملُ النساءَ أيّها السيد؟
- فأجابه: لا تنظرْ إليهنَّ.
- ولكنْ إذا اضطُررنا للنَّظَر إليهنَّ؟
- لا تخاطبهنَّ.
- ولكنْ؛ إذا خاطبْنَنَا؟
- إذاً؛ كنْ على حذر تامٍّ منهنَّ.

وكان آنندا من أنصار المرأة، وكان ابن عمّ بوذا وصفيّه، فمازال يلحُّ على بوذا حتى قبل ضمّ النساء إلى جماعته، وأتباعه، على أنه على الرغم من ذلك كان يرى في هذا خطراً على المجتمع البوذي، وقد قال لآنندا مرة: لو لم نضمّ المرأة لظلّ النظام الخالص طويلاً، أمّا الآن؛ فبعد دخول المرأة بيننا، فلا أراه يدوم طويلاً.

وقد أُثر عن بوذا قوله «للنظام بعد موتي أن يُغيِّر من سُننه ما يراه مُضرَّاً لمقاصده وحياته». ويرى العلامة ر«ادها كرشنن» أن بوذا عنى بهذه الجملة لأتباعه طَرْد النساء إذا رأوا منهنَّ خطراً على الدعوة.[1]

هنا نرى كيف أن تعامل الشرقيين مع الجانب الإغرائي للمرأة اتخذ لنفسه اتجاها تحفُّظياً بحتاً كنوع من الاستراتيجية الوقائية الاستباقية، لتضرب الثقافة الشرقية حول الحرية الجنسية للمرأة سياجاً من القيود الاجتماعية، التي من شأنها أن تحدَّ من المساحة المتاحة للمرأة لممارسة طاقاتها الإغرائية. ذلك كله في سبيل سعي الثقافة الشرقية لحماية المؤسّسة الزوجية عن طريق إثراء الجانب الأمومي من شخصية المرأة؛ حيث إن المجتمع الشرقي يرتكز في وجوده وتحديد مصيره - بشكل رئيس - على سلامة المؤسّسة الزوجية، واستمراريتها، وبقائها قوية متماسكة.

بينما نجد أن الغرب قد تبنّى السياسية المعاكسة تماماً لذلك؛ حيث لا تُشكّل المؤسسة الزوجية تلك الأهمية لدى المجتمع الغربي، باعتباره مجتمعاً غير قبلي، وليس لاعتبارات النَّسَب والأصل والفَصْل عنده أيّ معنى.

بل إن الإشاعية الجنسية كانت مطلوبة ومُفضَّلة لدى الرجل الغربي؛ حيث إنه من شأنها أن تزيح عن كاهله الكثير من الأعباء

---

(1) أديان الهند الكبرى، 180.

والمسؤوليات الأسرية، التي كبَّل الرجل الشرقي نفسه بها نتيجة تـشبُّثه بالمؤسسة الزوجية.

إن الحرية الجنسية المطلقة - التي تمتَّعت - مـن خلالها - المـرأة في الغرب بإشباع كامل شهواتها الإغرائية الإغوائية، دون أن يقف أمامها أو يعيقها أيّ قيد أو حَدّ - هي - في الحقيقة - ليست سوى إفراز لمدى ما تمتَّعت به شخصية الرجل الغربي من أنانية وتهرُّب من المسؤولية.

ففي الوقت الـذي كـان يقـف الرجـل الغـربي فيـه أمـام الجانـب الإغوائي المثير من المرأة موقف الحذر والشكّ والخوف والرهبة، كـان يدفعها للاستمرار في ممارسة هذه الغريزة، ويُمهِّد أمامها جميـع الـسُّبُل للاسـتغراق في لعـب أدوار الإثـارة والإغـواء الجنـسي؛ حيـث إنهـا - بذلك - كانت تهبه كلّ ما يحتاج إليه من لذَّة ومتعة وإشباع جنـسي، دون أن تضع على عاتقه أعباء القوامة والمسؤولية الأسرية.

وفي الوقت الذي تخلى فيه المجتمع الغربي عـن المؤسّـسة الزوجيـة التي لم يكن لها من فائدة تُذكَر في مجتمع غير قبلي، ليس لإثبات النَّـسَب فيه أيّ اعتبار، كان من الغباء الشديد في نَظَر الرجـل الغـربي أن يحمِّـل نفسه أعباء رعايـة المؤسّـسة الزوجيـة، في الوقـت الـذي كـان يمكنـه الحصول على كل ما يحتاجه من جسد المرأة بالمجَّان.

وهنا؛ استخدم الرجل ذكـاءه في اسـتغلال حاجـة المـرأة الفطريـة لرؤية نظرات الإعجاب والانبهـار بجمالهـا في عيـون أكـبر عـدد مـن الرجال، ودافعها الغريزي المُلحّ للإحساس بمـدى جاذبيتهـا وسِـحْر

أنوثتها عند سماعها لقصيدة غزل مختلفة كلّ يوم من فم رجل مختلف، ورغبتها الجامحة في الإحساس بعَظَمَة قيمتها الذاتية، عندما يركع بين يدَيْها كلّ يوم رجل مختلف، يقدِّم لها قربان المال، في مقابل أن يحظى بملامسة جسدها المثير ذي القيمة الإغرائية العالية.

تبلغ الغريزة الإغرائية في الأنثى من القوة مبلغاً يجعلها تطغى على جميع الغرائز الأخرى، بل إنه من شأنها أن تشلّ - تماماً - قدرتها على التفكير المنطقي في أبسط الأمور الحياتية، وتُعطِّل إمكانيتها على رؤية الأمور الواضحة، وخصوصاً تلك التي تتعلَّق بمستقبلها، ومصيرها.

فالمرأة الشابَّة الجميلة ترى أنه من الإجحاف في حقّها أن تحصر جمالها ومحاسنها داخل الإطار الأسري الضيق، وأن تكبت في نفسها مشاعر الزهو والخيلاء التي تنتابها عند انهمار عبارات الغزل والمديح إلى أذنَيْها، أو عند رؤية نظرات الوله والشبق والانشداه في وجوه جماهير الذكور المستثارة خارج إطار المؤسّسة الزوجية الأحادية، تلك المؤسّسة التي حرمتها من حقوقها الإغرائية الإغوائية، وحوَّلتْهَا إلى بقرة هندية، تعطي أكثر ممَّا تأخذ.

فتندفع المرأة الشابّة تحت تأثير غريزتها الإغرائية اندفاعاً أعمى للانطلاق في رحاب الإشاعية الجنسية الواسع، مُتحرِّرة من قيود المؤسّسة الزوجية وحجابها الفضائي المُملِّ، ولكنْ؛ ما إن يبدأ ذلك الشباب في الأفول، وتبدأ معه عبارات الغزل والإطراء في الاختفاء

شيئاً فشيئاً، حتى تجد نفسها وقد خسرت كلَّ شيء، بعد أن صدأ سلاحها، وتمزَّقت شباك صيدها، وتحطَّمت فوق أعتاب الزمن سهام سِحْرها الجنسي، التي كانت تُوفِّر لها الرعاية والحماية الجماعية من قِبَل ذُكُور المجتمع القابلة للاشتعال والاستثارة المُؤقَّتة.

لقد وقعت المرأة الغربية ضحية لخديعة مزدوجة، فقد خدعتها غريزتها الإغوائية بدفعها للارتماء في أحضان المتعة المؤقّتة، التي ما لبثت أن استفاقت من سكرتها، حتى وجدت نفسها قد خسرت الحضن الأسري الدائم، الذي ما انفكَّ يوفّر الرعاية والحماية والضمان الاجتماعي الحقيقي للمرأة الشرقية حتى آخر يوم في حياتها.

وفي المقابل؛ أسهم الرجل الغربي - بحنكته وذكائه، مدفوعاً بما تكدَّس في قلبه من ضغينة وحقد عليها ورغبة في الانتقام من تغطرسها الإغوائي - بدور البطولة في خداعها، عندما جرَّدها من ملابسها، ووضعها في منصَّة العرض، وأخذ يمتصُّ من كلِّ واد وهضبة في جسدها رحيق المتعة واللَّذَّة الآيروسية، ثم ما لبث أنْ قذف بها إلى قارعة الطريق، تتكفَّف الناسَ، بعد أن ذبلت وجفَّ رحيقها.

ولعلّه من الواضح لنا الآن سبب ذلك الاحتفاء الأسطوري بعارضات الأزياء والراقصات ومحترفات الإثارة والإغراء السينمائي في المجتمع الغربي، اللاتي يُطلَق عليهنَّ لقب «النجمات» اشتقاقاً من

إلهة الغرب العظمى «أفروديت»، التي كانت عبارة عن تجسُّد بشري لنجمة الصبح المُقدَّسة «فينوس» أو «الزهرة».

إن الأموال الطائلة والثروات الفَلَكية التي يُنفقها المجتمع الغربي على صناعة الإثارة والإغراء الجنسي - المرئي منه والمطبوع - تفوق الوصف والتَّخيُّل، بل إن الإعجاب والاحترام والتقديس والتقدير الذي يبديه الرجل الغربي تجاه نجمات الجنس والإثارة لا يُبدي معشاره تجاه زوجته، إنْ كان متزوّجاً.

ويَعُدُّ الرجل الغربي من دواعي الشرف والرفعة أن تقبل به إحدى نجمات الإثارة أو عارضات الأزياء زوجاً لها، حتى وإنْ أصبح ديّوثاً ودلَّالاً جنسياً لها؛ حيث بات من المعروف أن هذا النوع من الصناعة، ليس - فقط - هو أقصر الطُّرُق إيصالاً إلى قمم الشهرة وآفاق الشعبية الجماهيرية في الغرب، بل إنه أكثر الصناعات تحقيقاً للثراء الفاحش السريع.

أمَّا الثقافة الشرقية التي لا تُقدِّس شيئاً قدر تقديسها للمؤسسة الزوجية؛ فتنظر إلى هذا النوع من المهن نظرة احتقار وازدراء، وتُسمِّي محترفات الرقص والإثارة الجنسية «غانيات»، فهنَّ لا قيمة لهنَّ في المجتمع، ولا قدر، ولا يمكن - بأيّ حال من الأحوال - أن نجد رجلاً شرقياً واحداً يتحدّث عن الكرامة والشرف، وفي الوقت نفسه يَقبل على نفسه الاقتران بغانية، أو تقديم أيّ نوع من الاحترام والتقدير لها، مهما بلغت ثروتها، ومهما تمتَّعت به من جمال.

وفي المجتمع الشرقي القديم؛ كانت الغانيات جميعهنَّ ينتمينَ إلى طبقة الإماء «الرقيق»، ولا يمكن أن يوجد بينهنَّ امرأة واحدة تنتمي لطبقة الأشراف والسادة، بل إن الرجل قد يُقدِم على قَتْل مَنْ ينعت أمّه أو زوجته أو إحدى قريباته بالغانية، لما تُمثِّله هذه المهنة في بلاد الشرق من الخزي والعار.

لم يترك المجتمع الغربي للمرأة من خيار سوى توظيف تضاريس جسدها ومثيراته الجنسية أقصى درجات التوظيف الإغرائي الاستهلاكي، وذلك في سبيل حصولها على ما يمكنها إدخاره من المال لمرحلة ما بعد الشباب، وذلك حينما يترهَّل جلدها، فيرمي به الرجل في محرقة الجلود غير القابلة للدبغ.

إنه من أكثر المناظر إثارة للشفقة، منظر تلك الفتاة الغربية وهي مُتشبّثة في ثياب عشيقها، الذي كان يقاسمها الفراش لأكثر من أربع سنوات، تبكي وتتوسَّل إليه أن يتزوّجها، وهو يتهرَّب من موضوع الزواج تارة بعبارات التسويف الناعمة، وتارة بإهدائها وردة حمراء رومانسية، تنسيها التفكير في غير العشق والغرام.

حتى إذا ما ألحَّتْ في طلبها، لا تجده إلا وقد حزم أمتعته في ليلة ظلماء، بعد أن أخذ منها كلّ ما يحتاج إليه من متعة ولذّة، ليهجرها إلى حضن عشيقة أخرى لا تزال قابعة تحت تأثير الغريزة الإغرائية المثيرة، فإذا ما تقدَّم بها السِّنّ هي الأخرى، واكتشفت أنه لابد لها من تكبيل

هذا الصقر الثائر وشدّ وثاقه بأسلاك الزواج الشائكة، تجده، وقد أطلق جناحَيْه مغادراً عشَّها؛ لينهار العشُّ فوق رأسها في وقت هي أحوج ما تكون فيه لسقف الاحتضان الزوجي.

لقد انطبع في لاشعور الرجل الغربي، وفي تكوينه الثقافي، أن المرأة جسد، لا يصلح إلا للإغراء والإثارة، ولا يجيد سوى الخيانة والغدر، والمكر والخبث. شيطان بكلّ ما يحمله الشيطان من صفات الإغواء والنذالة. فهي لا يجب إلا أن تكون موضوعاً للمتعة العابرة، واللذّة المؤقّتة، التي لا ينبغي أن تترك خلفها أدنى قدر من المسؤولية بعيدة الأمد.

هكذا كانت أفروديت، وهكذا ستظلّ بناتها إلى أبد الآبدين، آلهة جنسية، ليس لغير الجنس مكان في معابدهنَّ. من حقّهنَّ الحصول على القربان الذي يقدّم بين يدَيْ كلّ ركعة وسجدة فوق سجّاد أجسادهنَّ، ولكنْ؛ من الغباء أن يستمرَّ الرجل في تقديمه لهذا القربان، حتى بعد أن تفقد تلك السجاديد قدرتها على جذب المُصلّين.

شعبا الجزيرة:

اختلف المُؤرّخون حول الأصل العِرْقي للشعوب السامية، وانقسموا في ذلك إلى فريقَيْن، فريق يرى أن الشعوب السامية هي شعوب أفريقية الأصل، نشأت في الساحل الشرقي لأفريقيا،

وخصوصاً منطقة الصومال، ثم تسلَّلتْ إلى الجزء الغربي من الجزيرة العربية من خلال معبرَيْن، باب المندب وصحراء سيناء.

أمَّا الفريق الثاني؛ فيجزم بأنهم شعوب آرية الأصل والمنشأ، هاجرت من آسيا الوسطى وأرمينيا على دفعات متتالية، فسلك بعضهم طريق الشرق نازحين من بلاد ما وراء النهرَيْن، مروراً بهضبة إيران، حتى استقروا في الجزء الشرقي من جزيرة العرب، والتفَّ البعض الآخر حول هضبة الأناضول سالكين طرق آسيا الصغرى؛ ليستقرّوا في شمال سوريا، حتى شرقي الأردن.

ويعود هذا الاختلاف بين المُؤرّخين إلى الغموض الذي يكتنف تاريخ الجزيرة العربية القديم، والذي حيَّر علماء الآثار عند محاولتهم تتبُّع تاريخ الشعوب، التي سكنت الجزيرة العربية، نَظَرَاً لقلَّة المادة الأثرية التي عُثر عليها في أراضي الجزيرة، وخُلُوّها إلا من بعض النقوش المسمارية والخطوط المسندة، التي وُجِدَت منقوشة على بعض الأحجار والصخور.

أمَّا عن التراث الأدبي، الذي - عادةً - ما يُشكّل المرجع الرئيس لتاريخ الشعوب وثقافاتها؛ فهو - أيضاً - عديم الوجود في جزيرة العرب، فلا يوجد بين أيدينا من سجلّ يُمكّننا من كشف الغموض حول التاريخ العربي القديم سوى الشعر الجاهلي، الذي لا يتعدَّى عمره المئتَيْ عام فقط قبل الإسلام، ومع ذلك؛ فقد قيل فيه ما قيلَ من انتحال وتزوير.

يقول الجاحظ في كتابه «الحيوان»: «أما الشعر (العربي) فحديث الميلاد صغير السّنّ، أول مَنْ نهج سبيله وسهَّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة ... فإذا استظهرنا الشعرَ وجدنا له خمسين ومائة عام (قبل الإسلام)، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتَيْ عام».

وهو ما يدلّ حقيقة على أن تلك المائتَيْ عام قبل الإسلام هي عمر اللغة العربية الحقيقي، فقبل ذلك لم يكن للُّغة العربية - بمعناها المفهوم حالياً – وجود؛ حيث كانت لهجات سُكَّان الجزيرة تختلف - تماماً - في الشرق عنها في الغرب، وفي الشمال عنها في الجنوب.

والأمر لم يقف عند حَدِّ اللغة واللهجة فقط، بل تعدَّى ذلك إلى العادات والتقاليد والمبادئ والمُثُل، بل وحتى الصفات البشرية، فالاختلاف الذي كان يظهر جلياً بين سُكَّان الشرق والشمال من جهة، وسُكَّان الغرب والجنوب من جهة أخرى دفع فريقاً من المُؤرّخين إلى الاعتقاد بعدم انتساب سُكَّان الجزيرة جميعهم إلى أصل عِرْقي واحد، وهي النظرية التي بإمكانها أن تجمع بين النظريَّتَيْن السابقتَيْن في قالب واحد.

ففي الوقت الذي لم يعرف فيه أهل نجد غير ثقافة الفروسية والقتال وركوب المصاعب والأهوال، كان المجتمع اليمني الحجازي مجتمعاً مَدَنياً مُتحضِّراً.

فقد عُرِفَتْ بلاد اليمن بثقافتها الزراعية وحاضراتها التجارية، خصوصاً في عصر الدولة السبئية، التي ربطت أراضي البلاد بشبكات مُتطوِّرة من قنوات الرّيّ وتوزيع المياه بين الأراضي الزراعية، وبنت السدود، التي كان أشهرها سدّ مأرب، الذي أقامه المكرب السبئي على فم وادي ذنة بمأرب سنة 650 قبل الميلاد.

وقد بلغت خصوبة أراضيها ووفرة إنتاجها الزراعي درجة جعلت شعوب العالم تُطلِق عليها اسم «بلاد اليمن السعيد» و«اليمن الخضراء»، فاشتهرت اليمن بإنتاج العطور، والطيوب، والمر، والصمغ، والكافور، والورس.

وكانت تلك طبيعة الإنسان اليمني في اختياره لمكان إقامته؛ حيث يتحرَّى أكثر البقاع مُلائمة للزراعة والحرث، وينتقي - بدقّة - مناطق الوفرة المائية، وغزارة الأمطار، وخصوبة التربة. وهي الطبيعة التي ظلَّت ملازمة لليمني في حِلِّه، وترحاله.

فالأوس والخزرج - وهي قبائل يمنية - عندما هاجرت للشمال، نجدها قد استوطنت «يثرب»، التي هي أكثر الأراضي الحجازية خصوبة، ووفرة في المياه.

وتقع يثرب بين حرَّتَيْن؛ هما حرَّة واقم في الشرق، وحرَّة الوبرة في الغرب، ممَّا يُعطي تربتها تلك الطبيعة البركانية بالغة الخصوبة، وأمَّا المياه؛ فتتدفَّق عليها بغزارة من ما يحيط بها من أودية؛ كوادي العقيق،

ووادي بطحان، ووادي مذينيب، ووادي مهزور، وغيره، واشتهرت يثرب بزراعة الشعير، والفواكه؛ كالعنب، والرمّان، والتمر، وخصوصاً ما يُسمَّى بتمر الصيحان، الذي لا يتوفَّر في غيرها.

وكذلك كان الحال مع باقي القبائل اليمنية؛ كالغساسنة الذين استوطنوا بلاد الشام، وأقاموا حول مياه حوران، والمناذرة الذين استقروا في حوض الفرات، وأرض السواد.

ولم تكن أهمية التجارة عند اليمنيين بأقلّ من الزراعة؛ حيث اشتهر أهل اليمن والحجاز بخبرتهم وحنكتهم التجارية الاحترافية، فكانت قوافلهم تُشكِّل حلقة الوصل الأولى بين الهند وأوروبا، فمنذ ما يربو على الألفَيْ سنة قبل الميلاد واليمنيون يتحكَّمون في خطوط التجارة الرئيسة بين الشرق والغرب، عبر طريق الحجاز.

فكانت قوافلهم تحمل لآلئ الخليج، وحرير الصين، وسيوف الهند، وتوابلها، والعاج الأفريقي، والذهب الأثيوبي من ميناء عدن إلى مصر والشام والعراق. وفي سبيل ذلك سيطروا على أهم الموانئ التجارية والمراكز الاستراتيجية، وأقاموا لأنفسهم - على طول الطريق التجارية - حاميات ومراكز عسكرية تحمي قوافلهم من غزوات القبائل النجدية عليها، فأقاموا الحاميات العسكرية في الواحات الهامة التي يمرّ بها الطريق التجاري؛ كتيماء، ومعان، وديدن، وسيطروا على الطريق البحري للتجارة الهندية عبر البحر الأحمر بواسطة أسطولهم

التجاري الكبير، وقد أُثري اليمنيون بسبب ذلك ثراء فاحشاً، انعكست آثاره على منشآتهم المَدَنية والحضارية العظيمة.

وكان للنشاط التجاري في بلاد اليمن والحجاز أثر كبير في قيام دويلات عربية على تخوم الشام والعراق؛ كدولة الأنباط، ومملكة تدمر، ودولة المناذرة بالحيرة. وخصوصاً دولة الأنباط، التي قامت - أساساً - على التجارة؛ إذْ كانت البتراء (عاصمة الأنباط) هي المركز التجاري الرئيس لطُرُق القوافل بين غزَّة وبصرى، وبين دمشق وأيلة. وقد اشتهرت البتراء أكثر ما اشتهرت بتجارة العطور، والطيب اليمني، والمنسوجات الحريرية الدمشقية، والصينية، والحنَّاء العسقلاني، ولآلئ الخليج، وزيت السمسم، والذهب، والفضة.

أمَّا تدمر؛ فكانت إحدى أهمّ محطات القوافل بين العراق والشام، مُستفيدة من موقعها الجغرافي الاستراتيجي على مفترق الطُّرُق الصحراوية الرابطة بين كلٍّ من ميناء عدن جنوباً عن طريق البتراء، وميناء جرهة شرقاً على الخليج العربي، والسواحل الشرقية للبحر المتوسّط غرباً عن طريق ميناء غزة، وآسيا الصغرى شمالاً عن طريق أنطاكية وطرابلس ودمشق، لتُشكِّل - بذلك - أحد أهمّ نقاط الارتكاز التجاري بين الشرق والغرب.

وبتحكّم تدمر في هذه الشبكة الكبيرة من الطُّرُق التي تربط السواحل السورية بآسيا والهند؛ أصبحت تُشكِّل المنافس التجاري

الأول للإسكندرية. وعن طريق جرهة، كانت تصل إلى تدمر المنسوجات الحريرية والجواهر واللآلئ والطيوب والبخور من الهند الصين وجنوبي الجزيرة العربية، لتأخذ طريقها إلى أوروبا عن طريق الساحل السوري وآسيا الصغرى.

أمَّا مملكة الحيرة؛ فإلى جانب ما اشتهرت به من الزراعة والرعي؛ كانت - أيضاً - تُشكِّل مركزاً تجارياً هاماً لوقوعها على شواطئ الفرات، ممَّا أتاح لأهلها الملاحة في نهر الفرات، نزولاً إلى الخليج العربي، ومنه إلى البحرين وعدن والهند والصين، وهي ميّزة جعلت من الحيرة منافساً تجارياً قوياً لميناء عدن، فباتصالها المباشر بالهند والصين تمكّنت من الالتفاف حول طريق الحجاز التجاري، لتكسر - بذلك - احتكار الحجازيين لتجارة الهند المربحة.

وبالعودة إلى طريق الحجاز، الذي كان يعدُّ طريقاً تجارياً عالمياً ورئيساً تتفرَّع منه عدة طُرُق فرعية تتّجه نحو الشرق والشمال الشرقي، فقد سيطر اليمنيون على هذا الطريق سيطرة تامة بشقَّيْه البرّي والبحري، وأقاموا فيه عدة محطّات وموانئ بَحْرية، تستقبل السفن المختلفة، الأوروبية منها والهندية، ومن أشهر هذه الموانئ ميناء الشعيبة، الذي يُسمّى اليوم ببحر مكّة، وميناء جدّة وميناء ينبع. وقد بلغت أهمية هذا الطريق أن أصبح موضوعاً للصراع العالمي الأزلي بين دولتَيْ العالم العُظميَيْن آنذاك، فارس والروم.

لقد كانت - ومازالت - تجارة السلع الهندية والصينية هي عصب التجارة العالمية، ومصدر الثراء الأكبر على هذا الكوكب، بل إنها كانت هي السبب الحقيقي والأزلي لجميع المعارك والحروب الطاحنة التي لم تضع يوماً أوزارها بين إمبراطوريَّتَيْ الشرق والغرب، من أجل السيطرة على الطُّرُق والمراكز الاستراتيجية لهذه التجارة المربحة، وبالتالي؛ احتكارها، والاستئثار بمدخولها الضخم. ومن جرَّاء ذلك أصبحت أراضي اليمنيين ساحة لتلك المعركة الاستعمارية بين الإمبراطوريَّتَيْن.

ففي السنة الرابعة والعشرين قبل الميلاد، شنَّ الرومان حملة عسكرية للاستيلاء على الحجاز واليمن، في سبيل السيطرة على طريق الهند التجاري عبر البحر الأحمر، وقاد الحملة «أليوس جالوس» مستعيناً بفرقة من الأنباط، ولكن الحملة تاهت في الأودية والشعاب، وضلَّت طريقها؛ لتعود - في النهاية - أدراجها، مُكلَّلة بالإخفاق الذريع.

لقد ظلّت فكرة السيطرة على البحر الأحمر مُعشعشة في أدمغة الرومان بإلحاح، وظلّوا يعدُّونها مسألة أمن اقتصادي استراتيجي للقارة الأوروبية، بعد أن أخفقوا في الوصول إلى الهند عن طريق الخليج العربي، الذي ظلّت تسيطر عليه الإمبراطورية الفارسية بإحكام شديد.

وكان الهاجس الأكبر الذي يُؤرّق مضاجع الرومان هو الخوف من سيطرة الفُرْس على مداخل البحر الأحمر، الأمر الذي لو قُدِّر له الحصول، فإنه يُمكِّن الفُرْس من احتكار التجارة الهندية احتكاراً كاملاً.

ولذلك قام الرومان بدَفْع حاكم الحبشة النصراني لاحتلال اليمن والحجاز، فاحتلَّ الأحباشُ اليمنَ، ولكنهم أخفقوا في السيطرة على الحجاز، التي قد حماها الله بطير الأبابيل، لتكون الهزيمة النكراء التي مُني بها أبرهة في مكة سبباً في تهاوي نفوذ الأحباش في اليمن، ليستغلّ الفُرْس هذا الوضعَ، وينقضّوا بجيوشهم على اليمن، ويحتلّوها، وبذلك تمَّ للفُرْس السيطرة الكاملة على تجارة الهند، لتقبع الإمبراطورية الروماني تحت وطأة أزمة اقتصادية مريرة.

هنا؛ يتَّضح لنا مقدار الاختلاف، بل والبون الشاسع بين طبيعة الرجل النجدي وجاره الحجازي.

فالنجدي مُقاتل بطبعه، جسور شجاع، يُقدِّس الحرب، ويعشق القتال، لا يُطربه صوت كصهيل الخيول وجلجلة السيوف، لا يُخيفه الموت، ولا يرعبه منظر الدم، وليس لديه مهنة أشرف من الغزو والسبي، فهو يرى في السِّلْم جُبن، وفي الوداعة ضعف وأنوثة. رزقه - دائماً - تحت ظلّ رمحه، فهو لا يحترم المال الذي يحصل عليه بغير القوة، ولذلك فهو يحتقر المهن المَدَنية ومَنْ يمتهنها، كالزراعة والتجارة والصناعة والخدمة. يعشق الصحراء بكلّ ما فيها من خشونة وقسوة،

ويكره المَدَنية والحضارة بكلّ ما فيها من راحة ويُسر، فهو يرى في الليونة عار، وفي التَّمدُّن ذلّ، ولا يعدُّ الشرف في غير ركوب المصاعب، وامتطاء صهوات الجياد.

بسبب ذلك كانت حياة اليمنيين مُفعمة بالرعب والخوف، يتوقَّعون من جيرانهم النجديين، في أيّ لحظة، غارة أو غزوة تنتهب قوافلهم، وتذهب بثرواتهم، ومُدّخراتهم، أو اجتياح لمُدُنهم وقُراهم يسحق تحت أقدامه جميع مقدراتهم الحضارية.

فالنجدي لا يعيش إلا على الغزو، ولا يتلذَّذ إلا بطعم اللقمة التي تتقطَّر دماً. وهي الحقيقة التي انطبعت في تراثهم الأدبي، وتلونت بها قصائدهم وأشعارهم.

يقول السموأل بن عاديا:

وإنا قوم لا نرى القتل سبة ... إذا ما رأته عامر وسلول

يقرب حبّ الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول

وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا ظلّ منا حيث كان قتيل

تسيل على حدّ الظباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل

ويُعبِّر عَمرو بن كلثوم عن هذا المعنى بكلّ وضوح عندما يُقرّر بأن المجتمع المقاتل هو مَنْ يجب أن يسود الناس، ويحكم الأرض، وذلك حقّ مُكتسَب له، استحقَّه بفضل شجاعته، وقوته. وأن الوسيلة الوحيدة

للمجتمع المقاتل كي يبقى محافظاً على عزّته وهيبته وسيادته هي أن يُعمل السيفَ في أكبر عدد من الرقاب التي يُمكّنه الله منها، فيقول:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً   أبينا أن نقرّ الذل فينا
لنا الدنيا ومَنْ أمسى عليها   ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا   ولكنا سنبدأ ظالمينا

ويقول أيضاً:

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا   على هالك أو تضجرنَّ من القتل
قراع السيوف بالسيوف أحلنا   بأرض براح ذي أراك وذي أثل

ويؤكّد هذا المعنى زهيرُ بن أبي سلمى قائلاً:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يُضرَّس بأنياب ويوطأ بمنسم

أمّا دريد بن الصمة؛ فيصف حياة النجدي في دوام التأهُّب للحرب؛ إمّا طالباً للثأر لنفسه، أو متوقّعاً لِمَنْ يثأر منه، فيقول:

أبى القتل إلا آل صمّة أنهم   أبوا غيره والقدر يجري إلى القدر
فإمّا ترينا لا تزال دماؤنا   لدى واتر يسعى بها آخر الدهر
فإنا للحم السيف غير نكيرة   ونلحمه أحياناً وليس بذي نكر
يغار علينا واترين فيشتفي   بنا إنْ أصبنا أو نُغير على وتر
قسمنا بذاك الدهر شطرَيْن بيننا   فما ينقضي إلا ونحن على شطر

ولا يوجد شيء في هذه الدنيا يساوي عند النجدي عزّته وكرامته وأنفته وكبرياءه، فالهوان والذلّ ليس له مكان في المجتمع النجدي.

بل إنه بلغ من شدة اعتزاز النجدي بنفسه واستعلائه على غيره أن أصبح الموت عنده مجرّد تضحية بسيطة، في مقابل أن يبقى اسمه عزيزاً مُكرَّماً حتى بعد موته، يقول زهير بن أبي سلمى:

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم — طوال الرماح لا ضعاف ولا عزل

فإنْ يُقتلوا فسيُشتفى بدمائهم — وكانوا قديماً من مناياهم القتل

ويقول عبد العزى الطائي:

إذا ما طلبنا تبلنا[1] عند معشر — أبينا حلاب الدر[2] أو نشرب الدما

ويقول المُتلمّس:

إن الهوان حمار الأهل يعرفه — والحُرُّ ينكره والرسلة[3] الأجد[4]

ولا يقيم على خسف يُراد به — إلا الأذلان: عير الأهل[5] والوتد

هذا على الخسف معقول برمته — وذا يشجّ فلا يبكي له أحد

---

(1) ثأرنا.

(2) الإبل.

(3) الناقة.

(4) الموثقة.

(5) الحمار الأهلي.

وتعود تلك الأنفة والكبرياء والسمة الاستعلائية في شخصية النجدي لأسباب عِرْقية محضة، فالأصل العِرْقي الذي يعود إليه النجدي يختلف تمام الاختلاف عن ذلك الذي ينتسب إليه اليمني؛ حيث يُؤمن النجدي تمام الإيمان أنه يتحدَّر من سلالة عِرْقية إلهية مُقدَّسة، ترجع في جذورها الأولى إلى أسرة نبوية طاهرة هي أسرة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام.

فيكاد يُجمع النَّسَّابون على أن جميع القبائل النجدية تجتمع في جدّ واحد، هو عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وهو النَّسَب الذي لا يرتقى إلى شرفه أحد غيرهم.

يُقسِّم علماءُ الأنساب سُكَّانَ الجزيرة العربية إلى قسمَيْن كبيرَيْن، قسم يمني الأصل، وقسم عدناني الأصل[1] .

أمَّا القسم اليمني الذي يُطلَق عليه اصطلاحاً «العرب العاربة»، أو «العرب القحطانيين» نسبة إلى جدّهم الأول قحطان، الذي يُعتقَد أن اسمه الحقيقي «يقطان بن نوح»، فقد تمركزوا - بداية - في جنوب الجزيرة، ثم - بعد ذلك - بدؤوا في الانتشار والهجرة إلى الشمال، ليستوطنوا بمنطقة الحجاز وأجزاء من جنوبي الشام والعراق، ويُرجع بعض المُؤرّخين أسباب هجرتهم إلى انهيار سدّ مأرب، وما صاحبه من كوارث بيئية حلَّتْ على اليمن.

---

(1) نسبة إلى عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم.

وبالرغم من الغموض الذي يحيط بالتاريخ القديم لتلك الهجرات ومساراتها والكثير من تفاصيلها، إلا أن المُؤرّخين استطاعوا توثيق بعض الأحداث والنقولات من خلال شذرات الآثار والنقوش الحجرية، والدراسات اللغوية الفونولوجية، وبعض المخطوطات القديمة التي عُثِرَ عليها في الكنائس والدِّيَر، وأخيراً؛ ما كتبه المُؤرّخون الفُرْس، وتمَّتْ ترجمته بعد الفتح الإسلامي لبلاد فارس.

وعموماً؛ فإن الهجرات اليمنية المتعاقبة إلى الشمال تمكَّنت - في النهاية - من تشكيل بعض التَّجمُّعات الكبيرة التي أنتجت ممالك ودول يمنية، بسطت سيطرتها على شمالي الجزيرة العربية وغربيّها وجنوبي العراق.

وتمركزت تلك التَّجمُّعات حول الأراضي الزراعية الخصبة، وفي الثغور التجارية الاستراتيجية، وكانت تميل إلى إقامة المراكز الحضارية المَدَنية، وذلك لما سبق ذِكْره من تمدُّن الشعب اليمني، ومَيْله للاستقرار الحضاري، واهتمامه بالمهن والحِرَف والصنائع، وخصوصاً الزراعة والتجارة.

ومن أشهر تلك الممالك كانت مملكة كندة، التي نشأت في الشمال الشرقي من الجزيرة، وكان يمتدُّ نفوذها - في بعض الأحيان - ليشمل مناطق واسعة من نجد، وقد اشتهر من ملوكها «حجر» المُلقَّب بآكل

المرار، وابنه معد يكرب. وكذلك دولة الغساسنة في شرق الأردن، ودولة المناذرة في الحيرة.

ومن أشهر قبائلهم إياد، التي كوَّنت عشائرها تجمُّعاً كبيراً في العراق. وقبيلة الأزد الضخمة، التي توزَّعت عشائرها بين شمالي اليمن وعمان والمدينة؛ حيث تنتسب إليها عشائر الأوس والخزرج، وشمالي الجزيرة في بلاد الشام؛ حيث تنتسب إليها عشائر بني غسان.

أمَّا قبيلة تنوخ اليمنية؛ فقد سجل التاريخ لها هجرة إلى بلاد البحرين؛ حيث تفرَّعت منها عشيرة لخم، التي أسَّست دولة المناذرة في الحيرة.

أمَّا قبيلة همدان؛ فقد تفرَّعت منها قبيلة طيء، التي هاجرت شمالاً لتستقرّ في جبلي أجا وسلمى.

كما هاجرت قضاعة إلى شمالي الحجاز؛ لتتفرَّع منها جهينة وبلي، ونزلت جذام وكلب وعاملة في حدود فلسطين، ونزلت عذرة بالقرب من تيماء ووادي القرى، واستقرت خزاعة في مكة، وبجيلة جنوبي الطائف.

أمَّا القسم الثاني من سُكَّان الجزيرة العربية؛ فيتألَّف من قبائل بني عدنان، أحفاد عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وينقسمون إلى فرعَيْن كبيرَيْن، ربيعة ومُضر.

أمَّا الفرع الأول أحفاد ربيعة بن نِزار بن مَعْد بن عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام؛ فقد تمركزوا - بدايةً - شرقيّ الجزيرة وشمالِيها، وانتشرت قبائلهم شمالي نَجْد والنُفوذ وبادية

السَماوة، حتى تَيماء غرباً، ومن أشهر قبائلهم بنو أسد بن ربيعة، وجديلة وعَنزة أبناء أسد، وعبد القيس بن جديلة، الذين سكنوا البحرين، وسواحل الخليج، ووائل بن جديلة، الذين تفرَّعوا إلى فرعَيْن كبيرَيْن: بكر وتَغلِب؛ أبناء وائل، أمَّا بكر؛ فتمتدُّ عشائرها من الشمال الشرقي للجزيرة إلى اليمامة والبحرَيْن، ومن عشائرها بنو حنيفة في اليمامة، وبنو عِجل، وبنو شَيبان، وبنو ذُهل، وبنو سدوس، وأمَّا تغلب؛ فقد توغَّلت إلى الشمال والشمال الشرقي من بكر، وينسب النسَّابون إليها قبائل يشكر، والدواسر.

وأمَّا الفرع العدناني الثاني؛ فهم أبناء مُضر بن نِزار بن مَعد بن عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فقد تمركزوا نسبياً إلى الغرب من أبناء عمومتهم بنو ربيعة بن نِزار، فمن أشهر قبائلهم تَميم وضُبة؛ أبناء طابخة بن الياس بن مُضر، الذين سكنوا - بدايةً - الجزء الغربي من صحراء الدَّهناء، وقبيلة قَيس عَيلان بن مُضر، التي تتفرَّع منها قبائل هوازِن، وسَليم؛ أبناء قيس عَيلان، الذين نزلوا شرقيّ الحجاز، وثقيف بن بكر بن هوازِن، الذين سكنوا الطائف، وبنو سعد (عُتَيبة) بن بكر بن هوازِن، الذين انتشروا غربيّ نَجْد وجنوبها الغربيّ، وغَطَفان بن قَيس عَيْلان بفرعَيْهَا الكبيرَيْن عَبس وذبيان؛ أبناء غَطَفان، ونزلوا غربيّ الدَّهنَاء، وأمَّا مُطَير بن غَطَفان؛ فنزلوا إلى الجنوب الغربيّ منهم، أمَّا عامر بن صَعْصَعَة بن معاوية بن بكر بن هَوازِن بفروعها

الكثيرة –عَقيل، ونُمَير، وكِلاب، وهلال، وسُبيع؛ أبناء عامر، وحرب بن هلال بن عامر–؛ فقد انتشروا على امتداد السفوح الشرقية من جبال الحجاز.

أمَّا أكبر القبائل المضرية مقاماً وأشرفها قدراً وأعلاها منزلةً؛ فهي قُريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مُضر، سيدة مكَّة، وسادنة الكعبة المُشرَّفة، التي كانت أكثر بيوت الله قُدسيةً عند العرب. ومن شرف الكعبة وقُدسيّتها اكتسبت قُريش شرفها وفضلها على سائر العرب؛ لتفرُّدها بسدانة هذا البيت، وجيرته.

لقد بلغ من اعتزاز العدنانيين بأنسابهم أنهم لم يبرعوا في علْم براعتهم في علم الأنساب والأحساب، فقد حفظوا شجرة أنسابهم من الضياع لآلاف السنين، يُعلِّمونها لأبنائهم، وأحفادهم، ويستذكرونها في مجالسهم، ومنتدياتهم، ولا يقبلون بحال أن يُشكِّكَ فيها مُشكِّك، أو يطعن في مصداقيتها أحد. فهي جُلّ ما يملكونه في هذا الوجود، وهي التي تعطيهم الحقَّ في التَّرفُّع والاستعلاء على غيرهم، والتفاضل والفخر على بقية البشر.

ومن خلال هذه الشجرة يُثبتون أنهم عِرْق إلهي نبوي، لا يحقُّ لغيره حُكْم العالم، وسيادة هذا الكون.

وهكذا عاش العدنانيون في أرضهم أسياداً مُبجَّلين، لا يخضعون لحاكم من غيرهم، ولا يرضخون لسلطان سواهم، بل إنهم ارتفعوا

فوق مستوى البشر، فأنفوا أن ينخرطوا في الأعمال الوضيعة والمهن الحقيرة التي خُلِق لها غيرهم، فلم يحترفوا زراعة أو صناعة أو تجارة.

لم يكونوا غير فرسان محاربين، أبطالا مُهابين، لا يسألون اللقمة، بل يغصبونها بقوة وعزّة نفس، ولا يطلبون المعاش، بل يأتيهم طوعاً على شكل أتاوة أوضريبة يفرضونها على القوافل التجارية التي تمرّ بأراضيهم، أو على الممالك التي تحيط بأطرافهم.

لقد بلغ من شجاعة فُرسانهم، الذين لم يتوقّفوا عن شنّ الغارات على ممالك الفُرْس والروم وقوافلهم، وسَلْبها، ونَهْبها، أنْ قضّوا - بذلك - مضاجع الدول العظمى، وأزعجوا أمنها، واستقرارها، حتى اضطُرَّ الفُرْس لعقد المعاهدات مع بني المنذر في العراق، ودعموا دولتهم، ومدّوها بالمال والسلاح؛ كي تقف حاجزاً في وجه فرسان بني عدنان، تحمي حدود الدولة الفارسية من هجماتهم، وغزواتهم. وكذلك فعل الروم مع دولة بني غسان في الشام. إلا أنه - مع ذلك - لم تتمكَّن قافلة من القوافل التجارية عبور أراضي الجزيرة دون أن تبذل من الإتاوات والعطايا ما من شأنه أن يقنع القبائل النجدية بالسماح لها بالعبور.

إن تلك الصفات الاستعلائية لم تكن محصورة في بني عدنان فقط، بل إنها كانت صفات عامّة لجميع أبناء نبي الله إبراهيم عليه السلام.

فإذا ما جئنا للفرع الآخر من العائلة النبوية، وهو الفرع الإسحاقي؛ أيْ أبناء إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، لوجدنا تلك الصفات تنطبق عليهم بحذافيرها.

يعتقد أبناء إسحاق اعتقاداً جازماً - لا يسمحون لأحد في هذا الكوكب أن يُشكّك في صحّته المطلقة - بأنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه دون بقية البشر، وأن الله ربّهم دون سواهم، وأن الأرض ما خُلِقَتْ إلا ليحكموها، وأن بقية البشر لم يُخلَقُوا إلا ليكونوا خَدَمَاً وعبيداً لبني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

وما من أحد يقرأ التوراة إلا ويجد هذا المعنى واضحاً جلياً في كل إصحاح من إصحاحاته. بل إن أكثر صفة وصفت التوراة بها الله سبحانه وتعالى هي أنه «رب الجنود»؛ أيْ أنه إله الحرب والقتال، في إشارة إلى أن أبناء إبراهيم وأحفاده ليسوا سوى جنود الله في أرضه، فهم لم يُخلَقُوا ليقوموا بمهنة غير هذه.

شعب الله المختار:

في حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد؛ نزحت حشود من الآريين، من مكان مجهول ولأسباب غير مفهومة، إلى شمالي القارة الهندية. واتخذ ذلك الزحف الآري طابع الإبادة الجماعية للسُّكَّان الأصليين؛ حيث كانوا يُطهِّرون الأماكن التي يستقرّون بها من جميع البشر الذين لا ينتمون إليهم عِرْقياً. ولكون الشعب الآري النازح إلى الهند شعباً مقاتلاً شديد البأس، فقد تغلَّبوا على سُكَّان الهند الأصليين بيُسر وسهولة، ودفعوهم نحو الجنوب، ليتحوَّل شمالي القارَّة وغربيها إلى مستعمرة آرية خالصة.ومن ثم؛ حارب الآريون الممالك التي أقامها الجنس الأصفر (التورانيين أو الطورانيين) بالهند، وانتصروا على الكثير منها، وكوَّنوا لهم بها مناطق نفوذ. ولم يتَّصل الآريون بسُكَّان الهند بطريق التزاوج، بل حافظوا - تماماً - على سلالتهم البيضاء، وساقوا سُكَّان الهند إلى الغابات، والجبال، أو أخذوهم أسرى.

وسمّاهم الأدب الآري المُبكِّر (أمَّة العبيد). واستنصر الآريون عليهم بإلههم «أندرا»، ومن دعائهم في ذلك:

«يا إلهنا أندرا، إننا قد أحاط بنا قبائل داسيو (العبيد) من جميع الجهات، وهم لا يُقدّمون الأضحيات، وليسو بآدميين، ولا يعتقدون في شيء. يا مُهلك الأعداء أَهْلِكْهُم. أَهْلِكَ نسل داسا (العبد)».

لم يتوارَ الآريون بالامتزاج في الهند، كما يتوار الفاتحون عادة في البلاد المفتوحة؛ لأن عدم التزاوج، ونظام الطبقات الحاسم حال دون امتزاجهم في الهند بالتورانيين المقهورين. ومع مرور تلك الآلاف من السنين، نستطيع أن نرى كيف أن آثار الآريين الجسمانية ماتزال بارزة في الشمال الغربي حتى العهد الحاضر كما يقول Weech، ففي البنجاب، نجد السُّكَّان أطول قامة، بشرتهم بيضاء، أو أميل إلى البياض، ملامحهم أدقّ، وهم بهذا يخالفون باقي الهنود؛ حيث تنتشر ملامح التورانيين، أو حيث توجد ملامح السكان الأصليين في الجنوب. وتقلّ ملامح الآريين كلما اتجهنا جنوباً أو شرقاً.

وبالتقاء الآريين والطورانيين مع السكان الأصليين، ظهرت الطبقات في الهند، وأصبحت ذات أهمية كبرى في تاريخ البلاد.

فمن الآريين كانت طبقة رجال الدِّين «البراهمة»، وطبقة المحاربين «كاستيريا». ومن التورانيين تكوَّنت طبقة التُّجَّار والصُّنَّاع والمزارعين «فيسيا». أمَّا الهنود الذين اتصلوا بالتورانيين؛ فلم يشملهم التقسيم في أول الأمر، ولكن الحضارة الآرية امتدَّت إلى بعضهم بمرور الزمن، فأوجد الآريون منهم الطبقة الرابعة، وجعلوها طبقة الخَدَم والعبيد «شودرا». أمَّا الذين لم تمتدّ إليهم الحضارة الآرية من السُّكَّان الأصليين؛ لأنهم انعزلوا – تماماً – عن الفاتحين، فقد بقوا بعيدين عن

التقسيم الذي لم يشملهم البتة، وظلُّوا طريدي المجتمع؛ يُلقَّبون بالمنبوذين، أو المطاريد.

يقول Weech في كتابه «The People and Religions of India» :

«وكان الآريون شعباً يفوق في نشاطه وحيويته السُّكَّان الأصليين، وكانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً بسُمُوِّ جنسهم على سواهم من الأجناس، وكلمة «آري» التي عُرفوا بها معناها «النبلاء»».

فالتقسيم الطبقي لم ينشأ إلا على أساس الجنس والأصل العِرْقي، وذلك عندما التقى الآريون بالتورانيين والسُّكَّان الأصليين، فنشأت لديهم الحاجة للحفاظ على صفاء عِرْقهم من الاختلاط، فجاءت آلية التقسيم الطبقي لتُحقِّق لهم تلك الحاجة.

وفي حديثه عن ذلك التقسيم الطبقي؛ يقول «Wells» في كتابه «AShort History of The World»:

«أصبح المجتمع الهندي - بعد الغزو الآري - مُقسَّماً إلى طبقات، لا يُؤاكل بعضها بعضاً، ولا تتزاوج، ولا تختلط اختلاطاً حراً. ثم استمر هذا التقسيم الطبقي أمد التاريخ كلّه، وهو الأمر الذي جعل من سُكَّان الهند شعباً يخالف المجتمعات الأوروبية والمغولية البسيطة السهلة التزاوج، فهو - في الحقيقة - مجتمع مجتمعات».

ويُؤكّد Weech تلك الحقيقة، وهي أن نظام الطبقات بدأ يظهر عندما بدأ اختلاط سَمَحَ بتكوُّن مجتمع مُوحَّد من هذه العناصر

المتباينة، أمَّا قبل هذا الاختلاط؛ فلم تكن هناك ضرورة لتكوين هذا النظام، فنظام الطبقات كان وسيلة للمحافظة على سلامة العِرْق السامي، بعد أن خيف عليه من الاندماج في الأجناس الأخرى التي بدأ يتصل بها.

لم تكن قضية الحفاظ على النقاء العِرْقي شيئاً هامشياً عند الآريين «البراهمة والكاستيريا المحاربين»، بل إنها بلغت من الخطورة والأهمية درجة جعلت من نظام الطبقات هذا قضية دينية مُقدَّسة ذات طابع إلهي، فلم يُؤكّد كتابهم الدِّيني المُقدَّس «قوانين منو» على مسألة تأكيده عليها.

ورد في كتاب قوانين منو، وهو يتحدّث عن صفة خَلْق الله للبشر النصّ التالي: «ثم خلق اللهُ البرهمي من فمه (فهو لسان حكمته في الأرض)، والكاستيريا (أو الكاشتريا) من ذراعه (فهو مظهر قوته في الأرض)، والفيسيا (أو الويشا) من فخذه (فهو مظهر سعيه في العمل، وكسب الرزق)، والشودرا من رجله (فهو رمز الوضاعة والدونية)، فكان لكلّ من هذه الطبقات منزلته على هذا النحو».

وبناء على هذا التفكير العقائدي الذي يرى أن الطبقات قد خَلَقَها الله على هذا الوضع، يُصبح هذا التقسيم أبدياً. فهو من صُنع الله، ولا طريق لإزالته، أو تغييره، وعلى هذا لا يرتفع أيّ شخص من أيِّ قسم إلى قسم أعلى، فالوضيع مَنْ وضعه الله، والعزيز مَنْ أعزّه، ورفعه.

وهنا؛ يأتي دور المرأة، التي هي أساس الحفاظ على صفاء النَّسَب ونقاوة العِرْق، فقد نصَّت قوانين الدّيانة الهندية بصرامة على أنه لا يجوز لامرأة أن تتزوَّج من طبقة هي أدنى من طبقتها، فعدم الكفاءة في النَّسَب جريمة لا تُغتَفَر، وكبيرة من كبائر الذنوب؛ حيث إن المرأة التي تتزوَّج برجل أدنى منها نسباً وأقلّ منها طبقة، فإن أبناءها سيهبطون إلى مستواه الوضيع، وتلك خسارة عظمى للتكوين الاجتماعي، وتلويث لنقاء الآريين العِرْقي.

ولكن هذا القانون لا ينطبق بالدرجة نفسها من الشدة على الرجل؛ حيث أجازت شريعتهم أن يتزوّج الرجل الشريف بمَنْ هي أدنى منه في النَّسَب والشرف، بشرط أن لا يدخل أبناؤه في عضوية طبقة الأشراف، وذلك لأن الأمّ هي مَنْ يحدِّد طبيعة أبنائها، وصفاتهم العِرْقية.

فمهما يكون من شرف الرجل إلا أن أبناءه لا يرتقون - بحال - لأصله العِرْقي، ومستواه الطبقي إنْ هم خرجوا من رَحِم وضيع.

حدَّدت شرائع «منو» - بدقة - وظائف وواجبات كلّ طبقة في المجتمع الهندوسي، فعلى البرهمي أن يشتغل بالتعلُّم والتعليم وبإرشاد الناس وإلقاء المواعظ والفتاوى، فكان هو المُعلّم والكاهن والقاضي ورجل الدِّين. أمَّا الكشتيري؛ فهو الجندي المقاتل، الذي يحمل السلاح للدفاع عن وطنه وشعبه، ولا يجوز له أن يشتغل أو يمتهن غير هذه المهنة. أمَّا الويشي؛ فعليه أن يزرع ويتاجر ويجمع المال ليُنفقه على

الطبقتَيْن الآريَّتَيْن سالفتَي الذِّكْر. أمَّا الشودريح؛ فهو الخادم المطيع لهذه الطوائف الثلاث.

وهذه بعض النصوص التي وردت في كتاب «شرائع منو» مُؤيِّدة لهذا المعنى:

«إذا وُلِدَ البرهمي وُضِعَ في الصفِّ الأول من صفوف الدنيا».

«البرهمي محلّ لاحترام جميع الآلهة بسبب نسبه وحده، وأحكامه حجّة في العالم، والكتاب المُقدَّس هو الذي يمنحه هذا الامتياز».

«كلّ ما في العالم هو ملك البرهمي، وللبرهمي حقّ في كل موجود».

«والبرهمي إذا افتقر حقّ له أن يمتلك مال الشودري، الذي هو عبد له، فالعبد وما مَلَكَ لسيده».

«ولا يُدنَّس البرهمي بذنب، ولو قتل العوالم الثلاث».

«ولا ينبغي للملك أن يجبي خراجاً من برهمي عالم بالكتاب المُقدَّس، ولو مات الملك محتاجاً، ولا يجوز له أن يصبر على جوع برهمي في ولايته».

«وليتجنّب الملكُ قتلَ برهمي، ولو اقترف جميع الجرائم، وليطرده من مملكته إنْ رأى، على أن يترك له جميع أمواله، وألا يصيبه بأذى».

«وعلى الملك ألا يقطع أمراً مهما كان دون استشارة البراهمة».

«ولينصب الملك من الأكشترية (المحاربين)، وللملك على بقية الأكشترية احترام الجنود لقائدهم».

«ويجب ألا يستخفّ بالملك، ولو كان طفلاً، وذلك بأن يُقال إنه إنسان، فالألوهية تتجسَّم في صورة الملك البشرية».

«ولا يجوز للأكشترى أن يشتغل بغير الجندية، والأكشتري يعيش جندياً حتى في وقت السِّلْم».

«وعلى الأكشترية أن يتجمَّعوا عند أول نداء، وعلى الملك أن يعدَّ لهم عُدَد الحرب، وأسلحته».

«أمَّا الويشي (الطبقة الثالثة)؛ فعليه ألا يتزوّج امرأة من غير طائفته، وأن يعنى جاداً بمهنته، ويربِّي الماشية على الدوام».

«وعلى التُّجَّار منهم معرفة قوانين التجارة ونُظُم الربا».

«وليعلم الويشي جيداً كيف يبذر الحبوب، ويفرق بين الأرض الجيدة والأرض الرديئة، وليطّلع على نظام الموازين والمكاييل اطّلاعاً كافياً».

«وليعرف أجر الخَدَم، ولُغات الناس، وما تُحفَظ به السِّلَع، وكلّ ما يمتُّ إلى البيع والشراء بصلة».

«أمَّا الشودري (طبقة الخَدَم)؛ فعليه أن يمتثل امتثالاً مطلقاً بأوامر البراهمة، سادة الدار العارفين بالكُتُب المُقدَّسة والمُشتهرين بالفضائل، فتُرجى له السعادة بعد موته ببعث أسمى».

«ولا يجوز للشودري أن يجمع ثروات زائدة، ولو كان على ذلك من القادرين».

«ويجب نَفْي ابن الطبقة الدنيا، الذي تُحدِّثه نفسه بأنْ يساوي رجلاً من طبقة أعلى من طبقته، وأن يُوسَم تحت الورك». «وتُقطَع يده إذا علا مَنْ هو أعلى منه بيده أو بعصاه، وتُقطَع رجله إذا رفسه بها». «وإذا ما دعاه باسمه أو باسم طائفته بدون تقدير، أُدْخِلَ في فمه خنجر مُحَمَّى مُلوَّث النصل، طوله عشرة قراريط». «ويأمر الملكُ بصَبِّ زيت حارّ في فمه، وفي أذنَيْه إذا بلغ من الوقاحة ما يُبدي به رأيا للبراهمة في أمور وظائفهم».

وفي الديانة الهندوسية، يُطلقون على الله اسم «أندرا»، أو إله الآلهة، وهو - في ثقافتهم - إله مقاتل محارب بطل جسور، وهذه إحدى صلواتهم التي يبتهلون بها إليه في معابدهم:

هو الأعلى من كلّ شيء، وهو الأسنى
إله الآلهة ذو القوة العليا
الذي أمام قدرته الغالبة
ترتعد الأرض والسماوات العالية
هذا هو أندرا إله الكون
هو الذي قهر الشياطين في الحساب
وأجرى الأقمار السبعة الصافية الكبار
واقتحم كهوف الكآبة والأكدار
وأخرجَ البقرات الجميلة من الأرحام
أضاءَ النار القديمة من البرق في الغمام

ذلك هو أندرا البطل الجسور
الجيش المُتقدّم للهيجاء
يناديه للنصرة يوم الحرب
الأعزَّاء بصيته الذائع يهتفون
والأذلَّاء يذكرون اسمه بشفاههم، ويهمسون
وقائد الجيش على العجلة الحربية
يدعو ويستنصر أندرا إله الحرب
الأرض والسماء تعترفان بسلطانه وكماله
والجبال المرتعدة تخرُّ له، وتسجد لجلاله
هو الذي يرسل صواعق السماء على أعدائه
فَلْتُهْدَ إليه السكائب المُقدَّسة
فإنه يقبل هذه الخمر، ويمنحنا رضاه
ويستمع للشعر وأغاني الولاء
له البقرات وأفراس الوغى
له القرى والمساكن وعجلات الحرب
هو يرفع الشمس بيده اليمنى
ويفتح الأبواب الحمر من شفق الفجر
فيمزّق السحاب الأحمر تمزيقاً
ويرسل شآبيب المطر؛ لنُصدّق به تصديقاً[1]

---

(1) أديان الهند الكبرى.

إن هذا التطابق المُلفت للنَّظَر بين الثقافة الهندية البرهمية، والثقافة اليهودية لم يقتصر - فقط - على نظرة الثقافتَيْن للذات الإلهية، واعتبار الله إلهاً للحرب والقتال، وربّاً للجنود، بل تعدَّاه إلى ما هو أبعد وأعمق من ذلك.

ومن أكثر الأمور إثارة للدهشة، ذلك التطابق الكبير بين نظرة الهنود إلى «براهما» ونظرة اليهود إلى «إبراهيم». فالبراهمة يعتقدون أنهم تحدَّروا من نسل «براهما»، وهو شخصية اختلطت فيها الصفات البشرية بالصفات الإلهية، لتُمثِّل تجسُّداً لله على الأرض في شخص براهما، ذلك الإنسان الكامل والإله الكامل في الوقت نفسه. فهم - إذاً - نسل إلهي، وشعب مختار، وهم أبناء الله، وأحبّاؤه. وهو الاعتقاد نفسه الذي نجده عند اليهود في جَدّهم الأكبر «إبراهيم». فقد كان إبراهيم في التوراة ليس سوى شخصية بشرية محضة تُدعى «أبرام»، ثم اتَّحدت هذه الشخصية البشرية مع الله، وأبرمت معه عقد شراكة ومعاهدة، تصبح من خلالها هذه الشخصية هي المُمثّل الوحيد لله في أرضه.

وما إنْ أبرم الله مع أبرام تلك المعاهدة، حتى تغيَّر اسم أبرام ليصبح إبراهيم، وهو اسم مُركَّب، يتكوَّن من جزأَيْن مندمجَيْن متداخلَيْن ومتمازجَيْن، فالجزء الأول «أبرا» مأخوذ من «أبرام»، أمَّا الجزء الثاني «هيم»؛ فهو مأخوذ من لفظ الجلالة في التوراة «ألوهيم»؛ أيْ «الله».

المؤسّسة الأسرية:

تُعدُّ المرأة في المجتمعات العِرْقية العنصرية حجر الأساس الذي تُبنى عليه هذه المجتمعات. فالمرأة هي اللاعب الرئيس في الحفاظ على سلامة النَّسَب وصفاء العِرْق.

إن مسألة الحمل والولادة والإخصاب كانت هي الدافع الأكبر الذي حمل الإنسان القديم على عبادة الأنثى، وتقديسها؛ حيث ترسَّخ في اعتقادهم أن الإنسان مخلوق من أمّه، مصنوع منها، وأن المرأة هي التي تُحدِّد - بدرجة كبيرة - طبيعة طفلها، وخصائصه العِرْقية والجسدية والعقلية والنَّفْسية، بل والروحانية أيضاً.

ومن ذلك جاء التركيز على المرأة كلاعب أساس في عملية الإنتاج البشري، والحفاظ على السلالة الإنسانية. وخصوصاً في المجتمعات العِرْقية العنصرية. فبالرغم من أنهم كانوا ينسبون الطفل إلى أبيه، إلا أن دور الأب لم يتعدَّ دور الشاهد على أن هذه المرأة الشريفة لم تضعْ في رحمها الطاهر نطفة وضيعة تُلوِّث صفاء نسلها، وأصالة سلالتها.

ولذلك فقد كانت غاية الفخر والتباهي للرجل أن يصف نفسه بقوله «أنا ابن الحُرَّة»، بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك، حينما كان الرجل ينسب نفسه إلى أمّه إذا كانت أمّه تتحدَّر من أصل عِرْقي هو أشرف من أصل أبيه، وكان أوضح مثال على ذلك هو ملك الحيرة «عَمرو بن المنذر»، فبالرغم من أن والده كان ملكاً مبجّلاً، إلا أنه

فضَّل أن ينسب نفسه إلى والدته «هند» النجدية؛ حيث إنه كان يرى في أصلها العِرْقي شرفاً لا يبلغه أصل والده اليمني، فقد كان يُسمّي نفسه «عَمرو بن هند»، وهو الاسم الذي اشتهر به بين القبائل.

ومن هذا المنطلق؛ كان مُحرَّماً على المرأة الشريفة أن تتزوّج بمَنْ هو أقلّ منها شرفاً ونَسَباً، وإنْ فعلت، فلابد من أنْ يكون مَلكاً مُبجَّلاً، أو شريفاً بلغ في قومه غاية الشرف، وأنْ يدفع لها من المهر والهدايا ما لا يقدر عليه أحد.

أمَّا الرجل؛ فيجوز له أن ينكح مَنْ هي أقلّ منه شرفاً وحَسَباً، بل سمحوا له حتى أن ينكح الإماء والجواري، شرط أن لا يرقى ابنه من الأمة إلى مرتبة الأشراف.

فالأمّ هي التي تُحدّد صفات ابنها، وطبائع شخصّيته، هي التي يُرجَع إليها في تحديد أصله، ونسبه، وابن الأمة لا يمكن إلا أن يكون عبداً وضيعاً مهما بلغ والده من الشرف والحَسَب، فالقبيلة الشريفة لا تقبل أن ينتسب إليها مَنْ خرج من رحم وضيع.

إن أعظم الجرائم على الإطلاق لدى الشعوب العِرْقية أن ينتهك عرض المرأة الشريفة، أو ينال من شرفها، وأكبر الكبائر أن يتطلّع وضيع دنيء الأصل للاقتران بذات الشرف والحَسَب.

والويل الويل للمرأة الشريفة أن تُسلِّم رحمها لَمنْ هو أدنى منها في الأصل والحَسَب، فهي سادنة سُلالة القبيلة، وحارسة أصلها العِرْقي،

ورحمها ليس مُلكاً لها، بل هو مصنع لإنتاج السُّلالة النقية. فلا يحقُّ لها أن تُلوِّث هذه الآلة الإنتاجية المُقدَّسة، حتى لا تأتي على أصل هذه السلالة بالدمار، ونقاء عِرْقها بالتَّلوُّث والخراب والانهيار.

أمَّا لو حدث وأَسَرَ الأعداء إحدى حرائر القبيلة، عندها؛ تقوم الدنيا، ولا تقعد، فتفزع القبيلة عن بكرة أبيها بشبابها وشيوخها، بجميع مقاتليها وأبطالها؛ ليُحرّروا شريفتهم من الأَسْر، حتى لو بذلوا آلاف الأرواح في سبيل ذلك.

عندما هاجر النبي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وبنوه من العراق إلى أرض فلسطين، أقاموا في مخيّم لهم قرب مدينة إيلات، التي تقع على رأس العقبة. فخرجت ابنة يعقوب «دينة» من المخيّم تتفقّد المكان، فرآها أمير عربي، ووقع في غرامها، فأخذها إلى قصر أبيه الملك، وأصرَّ على أن يتزوَّجها. وهنا؛ نُفضّل أن ندع التوراة تخبرنا عن ردّة فعل أبناء يعقوب تجاه الملك العربي، وابنه:

«وخرجتْ دينة ابنة ليئة، التي ولدتها ليعقوب، لتنظر بنات الأرض. فرآها شَكِيْمُ ابنُ حَمُور الحِوِّيّ رئيس الأرض، وأخذها، واضطجع معها، وأذلَّها. وتعلَّقت نفسه بدينة ابنة يعقوب، وأحبَّ الفتاة، ولاطف الفتاة. فكلَّم شَكِيْمُ حَمُور أباه قائلاً: خذْ لي هذه الصبية زوجة. وسمع يعقوب أنه نجَّس دينة ابنته. وأمَّا بنوه؛ فكانوا مع مواشيه في الحقل. فسكت يعقوب حتى جاءوا.

فخرج حَمُور أبو شَكِيم إلى يعقوب ليتكلَّم معه. وأتى بنو يعقوب من الحقل حين سمعوا. وغضب الرجال، واغتاظوا جداً؛ لأنه صنع قباحة في إسرائيل بمضاجعة ابنة يعقوب. وهكذا لا يُصْنَع. وتكلَّم حَمُور معهم قائلاً: شَكِيم ابني قد تعلَّقتْ نفسه بابنتكم. أعطوه إيّاها زوجة. وصاهرونا. تُعطوننا بناتكم، وتأخذون لكم بناتنا. وتسكنون معنا، وتكون الأرض قدّامكم. اسكنوا، واتَّجروا فيها، وتملَّكوا بها. ثم قال شَكِيم لأبيها ولإخوتها: دعوني أجْ نعمة في أعينكم. فالذي تقولون لي أعطي. كثِّروا عليّ جداً مَهْراً وعَطِيَّة. فأعطي كما تقولون لي. وأعطوني الفتاة زوجة.

فأجاب بنو يعقوب شَكِيْم وحَمُور أباه بمَكْر، وتكلَّموا؛ لأنه كان قد نجَّس دينة أختهم. فقالوا لهما: لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر، أنْ نعطي أختنا لرجل أغلف؛ لأنه عار لنا. غير أننا بهذا نُواتيكم. إنْ صرتم مثلنا بِخَتْنِكُم كلّ ذَكَر. نُعطيكم بناتنا، ونأخذ لنا بناتكم، ونسكن معكم، ونصير شعباً واحداً. وانْ لم تسمعوا لنا أنْ تختتنوا نأخذ ابنتنا، ونمضي.

فحَسُنَ كلامهم في عينَيْ حَمُور وفي عينَيْ شَكِيم بن حَمُور. ولم يتأخَّر الغلام أن يفعل الأمر؛ لأنه كان مسروراً بابنة يعقوب. وكان أكرم جميع بيت أبيه. فأتى حَمُور وشَكِيم ابنه إلى باب مدينتهما، وكلَّما أهل مدينتهما قائلين: هؤلاء القوم مُسالمون لنا. فليسكنوا في الأرض،

ويتْجروا فيها. وهوذا الأرض واسعة الطرفَيْن أمامهم. نأخذ لنا بناتهم زوجات، ونعطيهم بناتنا. غير أنه بهذا فقط يواتينا القوم على السكن معنا؛ لنصير شعباً واحداً. بخَتْنِنَا كلّ ذَكَر كما هُم مختونون. أَلَا تكون مواشيهم ومُقْتَنَاهم وكلّ بهائمهم لنا؟! نُواتيهم فقط، فيسكنون معنا. فسمع لحَمُور وشَكِيم ابنه جميع الخارجين من باب المدينة. واختتن كلّ ذَكَر. كلّ الخارجين من باب المدينة.

فحدث في اليوم الثالث إذْ كانوا مُتوجِّعين (من آلام الختان) أن ابنَيْ يعقوب شمعون ولاوي أخوَيْ دينة أخذا كلّ واحد سيفه، وأتيا على المدينة بأمن، وقتلا كلّ ذَكَر. وقتلا حَمُور وشَكِيم ابنَهُ بحَدِّ السيف. وأخذا دينة من بيت شَكِيْم، وخرجا. ثم أتى بنو يعقوب على القتلى، ونهبوا المدينة؛ لأنهم نجَّسوا أختهم. غنمهم، وبقرهم، وحميرهم، وكلّ ما في المدينة، وما في الحقل، أخذوه. وسبوا ونهبوا كلَّ ثروتهم، وكلَّ أطفالهم، ونساءهم، وكلَّ ما في البيوت»[1].

إن إساءة قراءة التاريخ أدَّت بالكثيرين للاعتقاد بأن المرأة كانت مظلومة مضطهدة مُحتقَرة منبوذة في بلاد الشرق، وبنوا اعتقادهم على هذا الأساس، حتى جعلوا قلوب بناتنا وعقولهم تتعلَّق بأوروبا كنبراس للحرية والانعتاق من قيود الشرق، وأغلاله.

---

(1) سِفر التكوين، 34.

والحقيقة أن أوروبا لم تُحرِّر المرأة إلا من لباسها، ولم تُقدِّس فيها سوى جسدها، ومواطن الإثارة الجنسية في شخصيتها.

لقد حرَّرت الثقافةُ الغربية المرأةَ من الحصن الأسري الذي كان يُوفِّر لها الرعاية المجّانية والحماية الأزلية والاحتضان الدائم الذي يبدأ معها منذ ولادتها، وحتى بعد أن يذبل جسدها، وتخبو مصابيح سِحْرها الإغرائي، وجاذبيّتها الجنسية.

لقد استغلَّت الثقافة الغربية في المرأة عشقَهَا للمديح والغزل، ورغبتها الجامحة في رؤية أكبر عدد من الرجال يتهافتون لقطاف ثمار محاسنها، ممَّا يمنحها ذلك الإحساس بالقيمة والأهمية الذي ما يلبث أن يتحوَّل إلى إحساس بالإهمال والتفاهة واللاقيمة، بل والعوز والجوع والفاقة وانعدام الأمان مباشرة مع بداية فصل خريف العمر. وهو الأمر الذي لا يحدث في بلاد الشرق، إلا ما نَدَرَ.

إن الغريزة الإغرائية في المرأة مسألة لا يمكن إنكارها، وخصوصاً في سنِّ المراهقة والشباب، الذي تبلغ فيه تلك الغريزة أوجها؛ لدرجة تُعمي بَصَرَ الفتاة، وبصيرتها، فلا تصبح قادرة على أن ترى في هذه الدنيا سوى رغبتها في الإغراء والتباهي بجمالها، وهي مسألة إذا ما أُطلق لها العنان، فستأتي على المؤسّسة الأسرية لتنسفها من جذورها.

وفي الوقت الذي انهارت فيه المؤسّسة الزوجية في الغرب انهياراً شبه تامّ، نجد المجتمع الشرقي بثقافته القَبَلية العِرْقية جعل من

المؤسّسة الزوجية عموده الفقري، الذي وضع فوقه جميع أحمال تركيبته الاجتماعية. فلم يُقدِّس الشرقي شيئاً في حياته تقديسه للمؤسّسة الزوجية، التي من خلالها – ومن خلالها فقط – يستطيع أن يحافظ على صفاء عِرْقه، وأصالة نَسَبه، وسلامة سلالته، ونقائها.

وفي سبيل الحفاظ على تماسك تلك المؤسّسة الزوجية وبقائها كان لابد من تقديم بعض التضحيات من قِبَل الرجل ومن قِبَل المرأة على حدّ سواء. فقد وضعت المؤسّسة الزوجية حول غريزة المرأة الإغرائية الكثير من القيود، فحرمتها من استخدام جسدها، واستعراض محاسنه، ومثيراته الجنسية، في سبيل الإيقاع بالرجال الأجانب، والاستمتاع بإثارتهم، وإشعال نيران شهواتهم، ورؤيتهم يتلوون شوقاً إليها، وطمعاً في تذوُّق عسيلاتها.

حرمتها – تماماً – من إطلاق العنان لرغبتها الإغرائية خارج إطار المؤسّسة الزوجية، ففرضت عليها لباساً ساتراً محتشماً خارج بيتها، ومنعتها من الاختلاط بالأجانب، والالتصاق بالأغراب، وحرَّمت عليها التَّبرُّج في الأسواق، والتمايل في الخطوات، والخضوع في القول، حرَّمت عليها أن تُغري، أو تُغرَى، أن تميل، أو تمال، أن تستثير، أو تُستثار، إلا داخل إطار المؤسّسة الزوجية.

ولكنْ؛ في المقابل، جعلتها داخل إطار بيتها أميرة مطاعة، سيدة مُبجَّلة، تأمر وتنهى، تطلب فتُلبَّى، يأتيها رزقها رَغَداً دون تعب،

أو مشقّة، يعمل زوجها جاهداً على توفير جميع طلباتها، دون أن تتكلّف مشقّة العمل، يحيط بها الجواري والخَدَم، ويُقدِّم لها أبناؤها وأحفادها فروض الطاعة والولاء والتقدير والاحترام في الغدوة والروحة.

إذا خرجتْ خرجتْ برفقة حارس شخصي يُسمّونه مُجاملة «المُحرم»؛ ليحميها، ويبذل روحه في سبيل الدفاع عنها، وإذا استصرختْ هبَّت القبيلة بأسرها لتلبية ندائها.

قدَّسَ الشرقُ في المرأة جانبها الأمومي، فعبدها كبقرة هندية، وقدَّم لها كامل فروض الاحترام والتقدير، إنْ هي قامت بدورها الأمومي على الوجه المطلوب، وتحمَّلت مسؤوليتها الأسرية المُقدَّسة بشكل كامل؛ لتحافظ على نقاء سلالة الأمة، وصفاء أصلها العِرْقي.

يقول الدكتور شوقي ضيف: «وقد كان هناك نوعان من النساء، إماء وحرائر، وكانت الإماء كثيرات، وكان منهنَّ عاهرات يتَّخذن الأخدان، وقينات يضربنَ على المزهر وغيره في حوانيت الخمَّارين، كما كان منهنَّ جوار يخدمنَ الشريفات، وقد يرعينَ الإبل والأغنام، وكنَّ في منزلة دانية، وكان العرب إذا استولدوهنَّ لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهنَّ، إلا إذا أظهروا بطولة تُشرِّفهم على نحو ما هو معروف عن عنترة بن شدَّاد، فإن أباه لم يُلحقه بنَسَبه إلا بعد أن أثبت شجاعة فائقة، ردَّت إليه اعتباره. وكانت الحُرَّة تقوم بطَهْي الطعام، ونسج الثياب،

وإصلاح الخباء، إلا إذا كانت من الشريفات المخدومات، فإنه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجواري. وتدلُّ دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادة كان لهنَّ منزلة سامية، فكنَّ يخترنَ أزواجهنَّ، ويتركنهنَّ إذا لم يحسنوا معاملتهنَّ. وبلغ من منزلة بعض شريفاتهنَّ أنهنَّ كنَّ يحمينَ مَنْ يستجير بهنَّ، ويرددنَ إليه حريته إذا استشفع بهنَّ، على نحو ما ردَّت فكيهة إلى «السليك بن السلكة» حريته، حين وقع أسيراً في يد عشيرتها من بني عوار. وكانوا يعدُّونها (المرأة الشريفة) جزءاً لا يُجتزأ من عرضهم، ولم يكن شيء يثيرهم كسبي نسائهم وهم بعيد عن الحي، فكانوا يركبون وراءهم كلّ وعر، حتى يلحقوا بهنَّ، وينقذوهنَّ، ويغسلوا عار سبيهنَّ عنهم، وهو عار عندهم، ليس فوقه عار.

وكانوا يصحبونهنَّ معهم في الحرب؛ ليشددنَ من عزائمهم بما ينشدنَ من أناشيد حماسية، حتى إذا قُتل فارس ندبنَهُ ندباً حاراً، حاضَّات على الأَخْذ بثأره، والانتقام من قَتَلَتِهِ»[1].

بل إنه كان منهنَّ مَنْ ملك الممالك، وحَكَم الدول، كالزبَّاء، أو زنوبيا، التي حكمت مملكة تدمر، وبلقيس التي حكمت سبأ، وكليوباترا التي حكمت مصر.

فالمرأة الشريفة العفيفة كانت من القداسة بمكان يخشى الرجال الشجعان من غضبها ومَقْتها وازدرائها لهم، فكان الرجل منهم يثبت

(1) العصر الجاهلي، 72.

في المعركة، حتى إنْ علم علْم اليقين أن ثباته سيؤدّي لمقتله، ولكنه يُقدم على الموت خشية أن تتحدَّث عنه شريفات قبيلته بأنه جبان فارّ.

وكان على قدر ما يبلغ من شرف المرأة؛ على قدر ما تبالغ هي في تعفّفها، وتستّرها، واحتجابها عن أعين الغرباء، والتزامها بحصنها الأسري، ومغالاتها في المحافظة على مؤسّستها الزوجية المُقدَّسة، حتى أصبحت أشرف شريفات النساء تُسمَّى بربَّات الخدور.

وفي ذلك يمتدح الشنفري زوجته أميمة، فيقول:

لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها	إذا ما مشت ولا بذات تلفت
تبيت بعيد النو تهدي غبوقها[1]	لجاراتها إذا ما الهدية قلت
تحلّ بمنجاة من اللوم بيتها	إذا ما بيوت بالمذمة حلت
كأن لها في الأرض نسيا[2] تقصه[3]	على أمها[4] وإن تكلمك تبلت[5]
أميمة لا يخزي نثاها[6] حليلها	إذا ذكر النسوان عفت وجلت
إذا هو أمسى آب [7] قرة عينه	مآب السعيد لم يسل أين ظلت

(1) اللبن الذي يُشرَب في المساء.

(2) الشيء المنسي أو المفقود .

(3) تتعقَّب أثره.

(4) قصدها .

(5) توجز.

(6) سُمعتها وذِكْرها.

(7) عاد.

فصاحبته وقور خجول، لا يسقط قناعها أثناء سيرها، ولا تلتفت حولها. وهي كريمة مُؤثرة، تُؤثر جارتها في الجدب بغبوق اللبن. وقد حصَّنت بيتها عن كلّ لوم أو ذمّ يلحقها. وهي شديدة الحياء، ومن أجل ذلك لا ترفع رأسها عن الأرض في مسيرها، حتى ليظنّ مَنْ يبصرها أنها تبحث عن شيء ضاع منها. وإذا اعترضها شخص وكلّمها أوجزت، ومضتْ سريعاً لقصدها، وغرضها. وإنَّ سُمعتها العطرة في العشيرة تملأ زوجها زهواً وخيلاء، فهي مثال العفَّة والجلال. لذلك؛ فزوجها يرفعها عن كلّ شكّ وتهمة، فإذا أمسى بعيداً، ثم عاد إليها من رحلته الطويلة عاد قرير العين بها، سعيداً بلقائها، فهو لا يسألها أين كانت، ومن أين أتت؛ لأنها موضع ثقته[1].

ولم يكن من الغريب أن تنشب الحرب التي تسيل من أجلها الدماء وتُزهق في خضمها الأرواح إذا ما مُسَّت كرامة المرأة الشريفة بشيء من الإهانة، أو حاول أحد كَشْف سترها، أو رؤية شيء من محاسنها. فقد ورد في إحدى الروايات أنه من الأسباب التي كادت تؤدّي إلى نشوب حرب الفجار الثانية، أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة نجدية من بني عامر، بدت لهم في هيئة جميلة، وهي في درع فضل، فأعجبهم ما رأوا من حُسن هيئتها، فقالوا لها: يا أَمَةَ الله؛ اسفري لنا عن وجهكِ، ننظر إليكِ. فأبتْ عليهم، فقام غلام منهم إلى خلفها، فشكَّ درعها إلى

---

(1) العصر الجاهلي، 74.

ظهرها بشوكة والمرأة لا تدري، فلمَّا قامت انكشف الدرع عن دبْرهـا، فضحكوا، وقالوا مَنَعْتِيْنَا أنْ ننظر إلى وجهـكِ، فقـد نظرنـا إلى دبـركِ. فصاحت المرأة ببني عامر، فضجَّت، فتجاوز الناس، ثم ترادّوا، ورأوا أن الأمر دون ذلك[1].

وفي التوراة؛ يدَّعي اليهود أن نبيهم «إِشَعْيَاء» قد تنبَّأ بهـلاك بابـل، وذلّ الشعوب الكلدانية، عندما أخبرهم بـأن المـرأة الكلدانيـة سـوف تخلع نقابها، وتخرج إلى سوق العمل؛ لتكـدَّ مـن أجـل لقمتهـا، تمامـاً؛ كالأمة والجارية؛ حيث إنه من أبرز ما يميز المرأة الشريفة عن الأمة هو حجابها، ونقابها، وبقاؤها داخل خدرها مخدومة غير خادمة.

فجاء في سفر إِشَعْيَاء ما نصّه «أيتها العذراء ابنة بابل. اجلسي عـلى الأرض بلا كرسي، يا ابنة الكلدانيين؛ لأنكِ لا تعودينَ تُـدعينَ ناعمـة ومُترفة. خُذي الرحى، واطحني دقيقاً. اكشفي نقابكِ. شمِّري الذيلَ. اكشفي الساقَ».

وفي سياق حـديثنا عـن مـا يمكـن أن تفعلـه عـزَّة المـرأة الـشريفة وكبرياؤهـا في مقـدّرات الرجـال، لا يفوتنـا أن نـذكر تلـك القـصة المشهورة التي لا يفتأ العرب يتناقلونها عن مقتل عَمرو بن هنـد ملـك الحيرة. فتروي لنا أيام العرب أن عَمرو بن هند قال يوماً لجلسائه:

- هل تعلمون أن أحداً من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمُّه أمي؟

---

(1) سمط النجوم العوالي، 1-237 .

- قالوا لا؛ ما خلا عَمرو بن كلثوم، فإن أمَّه ليلى بنت مهلهل أخي كُليب، وعمّها كُليب، وهو وائل بن ربيعة، وزوجها كلثوم، وابنها عَمرو. فسكت عَمرو على ما في نفسه. ثم بعث عَمرو بن هند إلى عَمرو ابن كلثوم يستزيره، وأن يُزير ليلى هنداً.

فقدم عَمرو في فرسان بني تغلب، ومعه أمّه ليلى، فنزل شاطئ الفرات، وبلغ عَمرو بن هند قدومه. فأمر عَمرو بن هند بخيمة، فضُربت فيها بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته، فصنع لهم طعاماً، ثم دعا الناس إليه. فقرَّب لهم الطعام على باب السرادق، وهو وعَمرو بن كلثوم وخواصّ من الناس في السرادق. ولأمّه هند في جانب السرادق قبّة، وأمّ عَمرو بن كلثوم معها في القبّة.

وكان قد قال عَمرو بن هند لأمّه: إذا فرغ الناس من الطعام، فلم يبقَ إلا الطرف، فَنَحِّي خَدَمَكِ عنكِ، فإذا دعوت بالطرف فاستخدمي ليلى، ومُريها، فلتناولكِ الشيء بعد الشيء. يريد طرف الفواكه، وغير ذلك بعد الطعام. ففعلت هند ما أمرها ابنها، حتى إذا دعا بالطرف قالت هند لليلى: ناوليني ذلكَ الطبق. قالت ليلى: لتقمْ صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فقالت: ناوليني، وألحَّتْ عليها، حتى إذا أحسَّت ليلى بمَكْرِها، صرخت قائلة: واذلَّاه... يا لتغلب!.

فسمعها عَمرو، فثار الدم في وجهه، والقوم يشربون. ونظر عَمرو ابن هند إلى عَمرو بن كلثوم، فعرف الشَّرَّ في وجهه، وقد سمع قول أمه: واذلَّاه.. يا لتغلب!.

ونظر عَمرو بن كلثوم إلى سيف عَمرو بن هند وهو مُعلَّق بالسرادق، ولم يكن بالسرادق سيف غيره، فثار إلى السيف مُصلّتاً، فضرب به رأس عَمرو بن هند، فقتله، ثم خرج، فنادى : يا لتغلب!.

فهجم بنو تغلب على بني المنذر، فانتهبوا مالهم، وخيلهم، وسبوا نساءهم، ولحقوا بالجزيرة[1].

---

(1) أيام العرب قبل الإسلام، 606 .

الفصل الرابع

«الإسلام» آخر معاقل الإمبراطورية

عند استعراضنا لأحوال العالم في ذلك الزمان تتكشَّف لنا بعض من حِكَم الله - عزّ وجلّ - في اختياره لهذه البقعة الطاهرة المباركة دون بقاع العالم؛ كي يحمّلها أمانته، ويُنزل على أهلها كلمته، ويصطفي منها خير خَلْقه؛ ليحمل شريعته إلى كلّ الأرض.

فالعزّة والكرامة والإباء التي تربّى عليها أبناء عدنان، وتشرَّبت بها قلوبهم، وعقولهم، وتطبّعت بها نفوسهم، جعلت منهم أكثر الشعوب جاهزية، واستعداداً لحَمْل رسالة الإسلام، فالإسلام دين العزّة والكرامة، ولا يقدر على حمل رسالته غير الأعزّاء.

لقد أعدّ الله - سبحانه وتعالى - سُكّان الجزيرة العربية إعداداً رائعاً لحَمْل رسالته، فكانت تلك النزعة العِرْقية التي غرسها في نفوسهم، على رغم ما فيها من العنصرية، والتعالي، إلا أنها كانت خير وسيلة لصقل نفوسهم، وتربيتهم على الكثير من الأخلاق، والمبادئ،

والمُثُل الحميدة الكريمة، فكانت مهمّة النبي - ﷺ - سهلة مُيسَّرة عندما جاءهم، وقد تشرَّبت نفوسهم بتلك القِيَم والخصال الكريمة، فلم يكن عليه سوى إضفاء بعض التحسينات والترميمات الطفيفة عليها تصديقاً لقوله - ﷺ -: «إنما بُعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق».

ولعلّ أكثر تلك الخصال الكريمة التي يهمّنا في هذا البحث التركيز عليها، هي تلك التي تتعلّق بتقديسهم الشديد للمؤسّسة الزوجية، واستماتتهم في صيانتها، والحفاظ على تركيبتها، وبنيانها.

فمن المفهوم أن هذا التقديس لم يُبنَ إلا على أساس عنصري هدفه الوحيد صيانة العِرْق، والحفاظ على السلالة نقية طاهرة، من أجل ذلك لم يصطدم الإسلام - في أول الأمر - بتلك النزعة العِرْقية عند العرب، وذلك من رحمة الله - سبحانه وتعالى - بخَلْقه، وشدّة عطفه وحنانه عليهم، وهو أسلوب معروف درج الشارع - عزّ وجلّ - على تطبيقه في كافة الشرائع السماوية التي سبقت الإسلام. فالله - سبحانه وتعالى - لا يُكلِّف نفساً إلا وسعها، ولذلك؛ فقد كان أسلوبه في تبليغ شرائعه للناس يأخذ طابع التَّدرُّج البطيء المُتأنِّي، حتى لا يثقل على نفوسهم بهزّة اجتماعية مفاجئة، لا قِبَلَ لهم بتحمُّل أعبائها.

وعند تتبُّعنا للطريقة التي بلَّغنا اللهُ بها شرائعَهُ وأحكامَهُ، نجده قد استخدم استراتيجيَّتَيْن في منتهى الذكاء والحكمة.

أمَّا الاستراتيجية الأولى؛ فهي التي تُسمَّى - اصطلاحاً - «النسخ»، وهي الطريقة التي كان الله - سبحانه وتعالى - يُقرُّ - من خلالها - بعض العادات والأعراف المُتعمِّقة والمُتجذِّرة في قلوب أفراد المجتمع، ثم يبدأ - بعد ذلك - بالتمهيد المناسب لتحويرها، أو تغييرها، أو حتى استئصالها برفق وسلاسة ومرونة شديدة، حتى لا يأخذ هذا التغيير طابع الثورة، أو الانقلاب الثقافي المفاجئ، الذي عادة ما يكون ثقيلاً على النفوس. ومثال ذلك ما سلكه الله من أسلوب في تحريم الخمر، وتغيير وجهة القبلة، وغير ذلك من الشرائع.

أمَّا الاستراتيجية الثانية؛ فهي ما يُسمَّى بأسباب النزول، التي - من خلالها - يربط المولى - عزّ وجلّ - تشريعاته وتعاليمه بأحداث دراماتيكية حية، تتجسَّد بواسطتها تلك التعاليم في صورة عملية واقعية، لتبدو وكأنها نبعت من عُمق الثقافة الاجتماعية المحلية، ونتجت عن طريق تفاعل اجتماعي طبيعي، أخذ مساره الاعتيادي في تغيير الأفكار والمفاهيم الاجتماعية تغييراً سلساً وانسيابياً؛ بحيث لا ينتج عنه أيُّ شرخ، أو انشقاق في المنظومة الفكرية للمجتمع.

ومن شأن هذه الطريقة - أيضاً - أن تكسب التشريعات الإلهية صفة الاستمرارية والأزلية؛ حيث تساهم الأحداث المصاحبة لإقرار تلك التشريعات في نَحْتها داخل عقول الناس، وطبعها في ذاكرتهم بشكل دائم، فلا قدرة بعد ذلك للزمن على محوها.

لم يصطدم الإسلام بالنزعة العِرْقية القبلية عند العرب اصطداماً قوياً مباشراً، فالنزعة العِرْقية نزعة فطرية متغلغلة في نفوس جميع بني البشر، حتى أولئك الذين يدَّعون بعدم وجودها لديهم، فهي فطرة طُبعت عليها السلالة البشرية بكاملها، حتى أصبحت جزءاً لا يُجتزأ من تركيبة العنصر البشري العقلية والنفسية.

وفي الوقت نفسه ؛ تبنَّى الإسلام أسلوب التَّروِّي في معالجتها، والحكمة في التعامل معه، ومحاصرتها بشكل تدريجي بطيء، تتزايد حدَّتُهُ مع الوقت، فشرع - بداية - في تقرير المعيار الذي تُقاس به درجة الشرف والكرامة "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، ثم بدأ في تذليل التضاريس الطائفية داخل المجتمع «الناس سواسية كأسنان المشط»، ليبدأ - بعد ذلك - في تصعيد حملته على تلك النزعة الطائفية بوَصْفها بأبشع الأوصاف «دعوها، فإنها منتنة»، وهلمَّ جرّاً.

وفي المقابل؛ استفاد الإسلام من تلك النزعة العِرْقية القبلية باستخدامها في تدعيم جذور المؤسّسة الزوجية، وتقوية أساساتها، وبُناها الهيكلية، ليجعل الإسلام من المؤسّسة الزوجية البُنية التحتية الأولى، التي بنى فوقها صرحه التشريعي الشامخ بكلّ ما يحويه من أنظمة وقوانين اجتماعية ربّانية.

وفي سبيل ذلك أقرّ الإسلام كلّ ما من شأنه تقديس الجانب الأمومي للمرأة، في الوقت نفسه الذي أقرّ فيه - أيضاً - جميع ما فُرض على جانبها الإغرائي الإغوائي من قيود.

إنَّ تفرُّسنا في ما أصبحت عليه المرأة المسلمة اليوم، لا يزيدنا إلا إجلالاً وإكباراً لهذه الشريعة الإلهية العظيمة.

ولتقريب هذا المعنى إلى فَهْم البعض ممَّنْ يرى فيه غموضاً، ينبغي علينا أن نعود بمخيّلاتنا إلى ذلك الزمن الذي يُسمَّى - اصطلاحاً - بزمن الجاهلية، ونحاول أن نتصوَّر ما كانت تتمتَّع به المرأة الشريفة من تقديس وإجلال.

وفي المقابل؛ نتصوَّر ما كانت تعانيه المرأة الوضيعة، التي لا يرتقي بها نَسَبُهَا وأصلُها العِرْقي إلى مرتبة الشرف، من تحقير وإذلال وإهانة واستعباد.

ثم - بعد ذلك - نتمعَّن في الكيفية التي جاء بها الإسلام ليقرَّ - في الظاهر - ما كان متعارفاً عليه من عادات وأعراف تتعلَّق بكلٍّ من المرأة الشريفة والوضيعة، وليُبقي الشريفة على شرفها، والوضيعة على وضاعتها، حتى ظنَّ قارئو ظواهر النصوص أن الإسلام دين عنصري قَبَلي، ليست شريعته سوى امتداد لشرائع الجاهلية.

ولكنْ؛ إذا سلَّمنا لهم بأن الإسلام نشأ كدين عنصري قَبَلي كما يقولون، ألا يحقُّ لنا الآن - وبعد أكثر من أربعة عشر قرناً - أن نتساءل: تُرى أين ذهبت تلك القوانين التي تُمَيِّز بين المرأة الشريفة النَّسَب، والمرأة الوضيعة النَّسَب في التشريع الإسلامي اليوم؟!

لماذا نجد أن المرأة المسلمة اليوم - سواء كانت يمنية أم عدنانية، حجازية أم نجدية، عربية أم أعجمية، سوداء أم بيضاء، شريفة الأصل والحَسَب أم يعود أصلها ونسبها إلى أسرة من الموالي والعبيد، تُعامَل من قِبَل الشريعة الإسلامية تماماً كما كانت تُعامَل هند أمّ عَمرو بن هند، وليلى أمّ عَمرو بن كلثوم؟

صحيح أن الشريعة الإسلامية تبنَّت ما كان معمولاً به في الجاهلية من أنظمة وشرائع تُقدِّس المرأة الشريفة دون غيرها إلى درجة العبادة، ولكنَّ شريعة الله العظمى قد نفخت في تلك الشرائع والأنظمة الجاهلية من روحها المُقدَّسة أكسيراً إلهياً مُقدَّساً، لم ينتبه إلى وجوده أحد، فظلَّ ذلك الأكسير يتفاعل مع تلك الشرائع تفاعلاً بطيئاً مُتدرِّجاً وانسيابياً، مُعتمداً على عامله التفاعلي المساعد، عامل الزمن. حتى إذا ما تقادم العهد، وجدنا أنفسنا أمام تشريع ثوري انقلابي إذا ما قارنَّاه بالشريعة الأمّ، الشريعة الجاهلية التي بُني هذا التشريع - أساساً - عليها.

فالمؤسّسة الزوجية التي كانت مُقدَّسة في التشريعات العِرْقية القبلية - فقط - بسبب دورها في حفْظ العِرْق وصيانة النَّسَب، أصبحت - اليوم - في الإسلام مؤسّسة مُقدَّسة لذاتها فقط، تقديساً ليس له علاقة، أو ارتباط بأيّ مفهوم عِرْقي، أو عنصري.

والمرأة التي كانت مُقدَّسة لشرفها وحسبها ونسبها، أصبحت اليوم في الإسلام مُقدَّسة لكونها أماً وأماً فقط، مهما كان أصلها، أو فصلها.

تلك - بحقّ - معجزة اجتماعية وتشريعية، من حقّنا أن نتحدّى أعداء الإسلام أن يُفسّروها لنا.

اليوم؛ قد نجد من نساء المسلمين في سنّ الشباب مَنْ تتذمَّر من كثرة القيود والضوابط التي تُعيقها من حرية التَّكشُّف والاختلاط والتباهي بجمالها ومحاسنها، بل قد نجد - أيضاً - مَنْ تتطلَّع للتَّحرُّر الجنسي التامّ، والتَّنقّل بين أحضان العُشَّاق والمعجبين، والاستمتاع بمواهبها الإغرائية، وجني المكاسب والعوائد من استثمار رصيدها الإغوائي المثير، تماماً كما تفعل بنات الغرب.

ولكنْ؛ بعد سنِّ اليأس، نجد الملايين من نساء الغرب يسبُّون الدهر، ويلعنون القدر الذي لم يكتب لهنَّ أن يُخلقنَ مسلمات.

الحجاب

قال أنس بن مالك (خادم رسول الله) رضي الله عنه:

بنى النبيُّ بزينب بنت جحش بخُبز ولحم، فأُرسلت على الطعام داعياً، فيجيء قوم، فيأكلون، ويخرجون، ثم يجيء قوم، فيأكلون، ويخرجون.

فدعوتُ حتى ما أجد أحداً أدعوه، فقلتُ: يا نبيَّ الله: ما أجد أحداً أدعوه. قال: ارفعوا طعامكم.

وبقي ثلاثة رهط يتحدَّثون في البيت، فخرج النبيُّ، فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته. قالت: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، كيف وجدتَ أهلكَ؟ باركَ الله لكَ.

فتقرّى حجر نسائه كلهنَّ، ويقول لهنَّ كما يقول لعائشة، ويقلنَ له كما قالت عائشة، ثم رجع النبيُّ، فإذا الرهط الثلاثة في البيت يتحدَّثون.

وكان النبيُّ شديد الحياء، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة، فما أدري أَخبرتْهُ أم أُخْبر أن القوم خرجوا، فخرج حتى إذا وضع رجله

في أسكفة الباب وأخرى خارجة أرخى الستر بيني وبينه، وأُنزِلَتْ آيـة الحجاب[1].

أمَّا في الحديث الذي رواه مسلم والنسائي والترمذي، والذي قال عنه «حسن صحيح»، فقد رُوي عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال:

أَعْرَسَ رسول الله - ﷺ - ببعض نسائه، فصنعتْ أمّ سليم حيساً، ثم جعلتْهُ في تور، فقالت: اذهبْ بهذا إلى رسـول الله - ﷺ - وأقرئـه منـي الـسلام، وأخـبره أن هـذا منـا لـه قليـل. قـال أنـس: والنـاس - يومئذ - في جهد، فجئتُ به، فقلتُ: يـا رسـول الله؛ بعثـت بهـذا أمّ سليم إليكَ، وهي تُقرئكَ السلام، وتقول أَخْبره أن هذا منّـا لـه قليـل، فنظر إليه، ثم قـال: ضَـعْهُ، فوضـعتُهُ في ناحيـة مـن البيـت. ثـم قـال: اذهبْ، فادعُ لي فلاناً وفلاناً، فسمَّى رجالاً كثيراً. وقـال: ومَـنْ لقيـتَ من المسلمين. فدعوتُ مَنْ قال لي ومَنْ لقيـتُ مـن المـسلمين، فجئـتُ والبيت والصفة والحجرة ملأى من الناس، فقلتُ: يا أبـا عـثمان؛ كـم كانوا؟ فقال كانوا زهـاء ثـلاث مئـة. قـال أنـس: فقـال لي رسـول الله - ﷺ -: جئ به. فجئتُ به إليه، فوضع يده عليه، ودعا، وقال ما شاء الله، ثم قال: ليتحلَّق عشرة عشرة، وليُسمُّوا، وليأكـل كـلّ إنـسان ممَّـا يليه.

---

(1) رواه البخاري.

فجعلوا يُسمُّون ويأكلون، حتى أكلوا كلّهم، فقال لي رسول الله ﷺ: ارفعْـهُ قـال: فجئـتُ، فأخـذتُ التـور، فنظـرتُ فيـه فـما أدري أَ هو حين وضعتُ أكثر أم حـين أخـذتُ؟! قـال أنـس: وتخلَّـف رجـال يتحدَّثون في بيت رسول الله ﷺ، وزوج رسول الله ﷺ التـي دخـل بهـا معهم مُولية وجهها إلى الحـائط، فأطـالوا الحـديث، فـشقّوا عـلى رسـول الله ﷺ، وكان أشدّ الناس حياء، ولو أعلموا كان ذلك عليهم عزيزاً. فقام رسول الله - ﷺ - فسلَّم على حجره، وعلى نسائه. فلمّا رأوه قد جاء ظنُّـوا أنهم قد ثقلوا عليه، ابتدروا الباب، فخرجـوا. وجـاء رسـول الله - ﷺ - حتى أرخى الستر، ودخل البيت، وأنـا في الحجـرة، فمكـث رسـول الله - ﷺ - في بيته يسيراً، وأُنزل عليه القرآن. فخرج وهو يتلو هذه الآية:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾[1].

قال أنس: فقرأهنَّ عليَّ قبل الناس، فأنا أحدثُ الناسَ بهنَّ عهداً.

---

(1) الأحزاب 53.

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: فقوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله - ﷺ - بغير إذن، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية، وابتداء الإسلام، حتى غار الله لهذه الأمّة، فأمرهم بذلك، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة، ولهذا؛ قال رسول الله ﷺ : إياكم والدخول على النساء. ثم استثنى من ذلك، فقال تعالى:إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ،قال مجاهد وقتادة وغيرهما: أيْ غير مُتحيّنين نضجه واستواءه؛ أيْ لا ترقبوا الطعام إذا طُبخ، حتى إذا قارب الاستواء تعرَّضتُم للدخول، فإنّ هذا ممَّا يكرهه الله، ويذمّه، وهذا دليل على تحريم التَّطفُّل، وهو الذي تُسمّيه العرب الضيفن.

وقد صنَّف الخطيب البغدادي في ذلك كتاباً في ذمِّ الطفيليين، وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها.

ثم قال تعالى: وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ. وفي صحيح مسلم عن ابن عُمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو غيره، وأصله في الصحيحين.

وفي الصحيح - أيضاً - عن رسول الله - ﷺ -: لو دُعيتُ إلى ذراع لأجبتُ، ولو أُهدي إليَّ كراع لقبلتُ، فإذا فرغتُم من الذي دعيتُم إليه، فخفِّفوا عن أهل المنزل، وانتشروا في الأرض. ولهذا؛ قال تعالى:

وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ؛ أيْ كما وقع لأولئك النفر الثلاثة، الذين استرسل بهم الحديث، ونسوا أنفسهم، حتى شقَّ ذلك على رسول الله- ﷺ - كما قال تعالى: **إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ**، وقيل المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشقّ عليه، ويتأذّى به، ولكنْ؛ كان يكره أن ينهاكم عن ذلك من شدّة حيائه عليه السلام، حتى أنزل الله عليه النَّهي عن ذلك، ولهذا؛ قال تعالى: **وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ**؛ أيْ ولهذا نهاكم عن ذلك، وزجركم عنه.

ثم قال تعالى: **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ**؛ أيْ وكما نهيتُكُم عن الدخول عليهنَّ، كذلك لا تنظروا إليهنَّ بالكُلِّيَّة، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهنَّ، فلا ينظر إليهنَّ، ولا يسألهنَّ حاجة إلا من وراء حجاب.

وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي، حدّثنا ابن أبي عمر، حدّثنا سفيان، عن مسعر، عن موسى بن أبي كثير، عن مجاهد، عن عائشة قالت: كنتُ آكل مع النبيّ - ﷺ - حيساً في قعب، فمرَّ عُمر، فدعاه (النبي) فأكل، فأصابت أصبعه أصبعي، فقال «حس»، أو «أوه»، لو أطاع فيكن ما رأتكنَّ عين، فنزل الحجاب. **ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ**؛ أيْ هذا الذي أمرتُكُم به، وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب[1].

---

(1) تفسير ابن كثير، **3- 506**.

كانت أعين المسلمين قاطبة مُسلَّطة على بيت النبي - ﷺ - ترقب دبَّة النمل فوق أرضه، ذلك البيت الحجرة، التي لم يتجاوز حجمها حجم أصغر حجرة في بيت أحدنا هذه الأيام.

كانت تلك الحجرة هي غرفة النوم، وغرفة الاستقبال، هي المجلس، والمقلط، والصالون، والصالة، والمطبخ، وغرفة العائلة. وهي في الوقت نفسه حجرة الاتصال بين الأرض والسماء، ينزل فيها الوحي، وتُفرَض فيها الشرائع، وتصدر منها المراسيم الإلهية الخالدة.

وكان كلّ حَدَث أو موقف يحصل في بيت النبي - ﷺ - تتلقّفه ألسنة المُسلمين بالسَّرْد والتناقل، لتتكوَّن من تلك الأحداث والمشاهد النبوية الشريفة عشرات الألوف من الأحاديث، التي أصبحت أكثر مصادر التشريع الإسلامي غزارة.

خلَّد المسلمون تلك الأحاديث بنصوصها وأسانيدها، حتى باتت معيناً لا ينضب للفقهاء والمُفكّرين والمجتهدين على مرّ العصور والأزمان، فأُلِّفَتْ في شروحها وتفاصيل حُكْمها وأحكامها، واستنباط الأنظمة والتشريعات الإسلامية من ظواهر نصوصها وبواطنها عشرات الألوف من الكُتُب والمُجلّدات التي بلغت من ضخامة الحجم وغزارة العلم درجة لا يستطيع معها فقيه أو علامة مهما بلغ من علمه أن يدّعي الإحاطة بجميعها، أو حتى بأغلبها علماً.

ربط الله - سبحانه وتعالى - تشريعاته بتلك الأحداث النبوية التي كانت تتجسّد أمام أعين الصحابة، وهي نابعة من عمق ثقافتهم، ومن صميم بيئتهم، لتكون في غاية اليُسر والسهولة على عقولهم أن تستوعبها، وعلى فكرهم أن يهضمها. فكان بيت النبي - ﷺ - زاخراً على الدوام بالزُّوَّار والتلاميذ وطلاب العلم، بل إن أبوابه كانت مفتوحة حتى للمُتطفِّلين وثقيلي الظلّ والمُتتبّعين آثار الولائم. وكانت من عادات العرب أن لا يستأذنَ القريبُ في الدخول إلى بيت قريبه في أيّ وقت شاء، وعلى أيّ حال كان فيه أهل البيت، أمّا النبي ﷺ؛ فكان المسلمون جميعهم يعدُّونه قريبهم الذي لا يُقفِل في وجوههم باباً، ولا يرخي بينهم وبين أهل بيته ستراً، ولا حجاباً.

فشاء الله - سبحانه وتعالى - أن يُحدث في بيت النبي من الأحداث ما يُسيء إليه ﷺ، ويؤذيه في نسائه، ليجعل من أسرة خير خلقه - عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم - عبرة لأجيال المسلمين على مدى الدهور، يُعلّقونها فوق جدار ذاكرتهم؛ ليستقوا منها معيناً لا ينضب من الدروس العملية في كيفية صيانة حياتهم الأسرية، والمحافظة على مؤسّساتهم الزوجية.

إن تلك الأحداث التي دارت رحاها في بيت النبي ﷺ، والتي نزلت بين فصولها تلك الآية الكريمة - لم يتناقلها الصحابة والتابعون - رضوان الله عليهم - بالسرد نفسه، والتفصيل نفسه، بل إن

التفاصيل التي كانت تصل إلى مسامع بعضهم لم تكن تصل إلى مسامع البعض الآخر، فطفق كلّ منهم يروي ما وصل إليه من تفاصيل.

من رواية البخاري - التي ذكرناها سالفاً - تكون آية الحجاب قد نزلت في السنة الخامسة من الهجرة، وهي السنة التي تزوّج النبي - ﷺ - فيها أمّ المؤمنين زينب بنت جحش، رضي الله عنها.

أمَّا في الرواية التي نقلها ابن كثير عن ابن أبي حاتم فيما ذكرتْهُ أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها من ملامسة يدها عن غير قصد ليد عُمر ابن الخطاب رضي الله عنه، عندما كانت أيديهما تغوص في قصعة الطعام، ممَّا أثار في نفس عُمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تلك الرعشة التي جعلتْهُ ينطق بكلمة «حس»، أو «أوه»، وذلك ما حدا به - رضي الله عنه - لتقديم النصيحة لرسول الله - ﷺ - بقوله: «لو أطاع فيكنَّ ما رأتكنَّ عين»، عندها؛ تكون آية الحجاب قد نزلت تصديقاً لنصيحة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه، وأرضاه - لرسول الله ﷺ.

وممَّا يدعم هذا الرأي ما رواه البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال: قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: يا رسول الله؛ يدخل عليكَ البرّ والفاجر، فلو أمرتَ أمَّهات المؤمنين بالحجاب؟! فأنزل اللهُ آيةَ الحجاب.

وهكذا نجد كيف شرَّع اللهُ - تعالى - الحجابَ؛ ليحمي المؤسّسة الزوجية من الأخطار التي بإمكانها أن تهدّد تماسك تلك المؤسّسة،

وتصيب بنيانها بالشرخ والتهالك، فالغريزة الجنسية في الإنسان غريـزة قويـة متأصّـلة ومتجـذّرة داخـل بنيتـه الكيميائيـة، لا تنفـصل عنـه، ولا تنفـكُّ، ولا يـستطيع أحـد مـن البـشر أن يُنكـر وجودهـا لديـه، وتحكُّمها فيه تحكُّماً لا إرادياً، مهما بلغ من الصلاح والتقوى.

تلك هي الكذبة التي وقع فيها كَهَنَةُ النصارى، ورهبـانهم، عنـدما ادَّعوا بقُدرتهم على التَّحكُّم في تلك الشهوة، وقيادتها، فكانت النتيجـة تلك القَصَص المتواترة المتكرّرة على مـدى التـاريخ، والتـي تحكـي بـما يحدث بشكل مُستمرّ داخل الكنائس والمعابد النصرانية من اغتـصاب للأطفال، ولواط بين الكَهَنَة، وسفاح بين الرهبان والراهبات.لقد شبَّه الحكماءُ الرجلَ بإناء من الوقود شديد الاشتعال، والمرأة بشعلة من نار. فالوقود؛ وإنْ كان راكداً يظهر عليه السكون والهدوء، إلا أنه يحـوي في جنباته طاقة كامنة رهيبة، فلا يلبث أن يلامس شرارة من اللهب، حتى ينفجر دون مقدّمات، ويبقى مستمرّاً في الاشتعال، حتـى يفنـى تمامـاً، فلا يبقى منه قطرة.

لم يستطع أيُّ قانون وضعي في العالم أن يحـول دون حـدوث ذلـك الانفجار المُدمّر، الذي تبدأ سلسلته التفاعلية دون توقّف بمجرّد التقاء كتلة البارود الذَّكَري المضغوط، بصاعق المرأة الإغرائي.

ولم يجد العالم بُدّاً من الاستسلام لهذا الانفجار، الذي لا يمكن التَّحكُّم به، فأطلق العالمُ العنان للحرية الجنسية دون حدود، لتأتي على جذور المؤسّسة الزوجية العالمية، فتنسفها دون رحمة، أو شفقة.

فأصبح الرجل في الغرب لا يشعر بتلك العاطفة الأبوية نحو ابنه، فهو يشكُّ في نَسَبه له، وخروجه من صُلبه، تماماً كما يشكُّ الولد في نسبته إلى أبيه، لذلك لا نجد من الغريب في المجتمع الغربي أن يصف الولدُ أمَّه بالداعرة، وليس بالأمر قليل الحدوث في مجتمعهم أن تسبَّ الفتاةُ أمَّها بأبشع الألفاظ، وربما تضربها، وتبصق في وجهها عند أتفه خلاف يقع بينهنَّ.

وما إنْ يبلغ الابن أو الابنة سنَّ السادسة عشر؛ حتى يبدأ في حزم حقائبه مغادراً منزل أسرته دون رجعة، بل إنه ينفصل عنهم انفصالاً تاماً، وكأنه لم يتعرَّف عليهم في حياته قطّ، والويل الويل لوالدَيْه، أو أحدهما لو حاول التَّدخُّل في حياته، أو تقديم النصح والإرشاد له بعد هذه السنّ، بل إنه يكون مستعداً لتقبُّل النصح من أيّ إنسان في هذه الدنيا ما عدا والدَيْه.

وبالمقابل؛ يتخلَّى الآباء في الغرب - تماماً - عن أبنائهم بعد خروجهم من المنزل، حتى إذا وقع الابن في ورطة أو مشكلة، أو أصابته ضائقة ما، فإن آخر مَنْ يفكّر في مدّ يد العون له ومساعدته هما والداه، وذلك بحجّة أنه أصبح مسؤولاً عن نفسه مسؤولية كاملة،

فعليه - وحده - أن يتحمّل تلك المسؤولية برمّتها، والتي لم يسمح لأحد من الأساس أن يشاركه في تحمّلها.

تلك هي المؤسّسة الأسرية التي خلّفها الانفجار، ذلك الانفجار الذي لم يسمح له الإسلام بالحدوث.

لقد جعل الإسلام من المؤسّسة الزوجية قناعة استراتيجية، وفلسفة عقائدية، غرست جذورها في أعماق البنية الفكرية والتركيبة الثقافية لكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية، لتدفع به إلى الاستماتة في الدفاع عن هذه المؤسّسة، والانتحار الفدائي في سبيل حمايتها، وحفظها من كلّ ما من شأنه أن يهدّد وجودها، أو يمسَّ سلامتها، وبقاءها.

فالأسرة - بالنسبة للمسلم - هي السند الذي يتّكئ عليه كلّما أتعبتْهُ مسيرة الحياة، هي العمود الفولاذي الصلب، الذي يتمسَّك به؛ ليبقى واقفاً عندما تخونه قدماه في الوقوف، هي الحصن الخرساني، الذي يلجأ إليه عندما تحيط به الأخطار، ويتربّص به الأعداء، هي السواعد التي تمتدّ إليه لتنتشله من الحفرة التي يقع فيها أثناء سيره في الطريق الوعر، هي العصبة القوية المتماسكة، التي تحيط به، وتحتضنه كلّما أحسّ بحاجته للاحتضان، هي المظلّة التي ترخي حول جسده أطرافها؛ لتبقه جافّاً في اليوم المطير.

داخل الأسرة الإسلامية يشعر كلّ فرد شعوراً حقيقياً بانتمائه إلى الآخر. يتأكّد الوالد - تماماً - أن الذين يحيطون به هم خالص لحمه ودمه. ويشعر كلّ ابن من الأبناء شعوراً لا يعتريه شكّ بأن كلّ خلية في

جسده هي نسخة طبق الأصل من خلية أخيه. فالصفاء والنقاء والطهارة الجنسية التي أحاط الإسلام بها أسرته، جعلت من الشعور بالانتماء لدى أفرادها شعوراً فولاذياً صلباً، لا يعتريه أدنى ريب أو شكّ.

وجاء الحجاب كي يحمي هذا البناء الاجتماعي الإعجازي من كلّ ما من شأنه أن يُعكّر عليه صفوه، أو يثير الشبهة من حوله، فأقام ذلك الجدار الفاصل بين الصاعق والبارود، حينما منع كلّ مُتطفّل أن يقتحم على ربّة الأسرة حصنها ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، أغلق الحجابُ جميعَ المنافذ والثغرات التي قد تأتي بغبار الخطر إلى داخل المؤسّسة الزوجية، حينما منع حتى أصدقاء الأسرة المشهود لهم بالتقوى والصلاح من الاختلاط بنسائها، فالشهوة الجنسية غريزة لا يستطيع حتى أتقى الأتقياء أن يخفّف من لهيبها داخل عروقه.

لم يختلف اثنان من الصحابة أو التابعين أو تابعي تابعيهم على صلاح طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، وتقواه، وشدة إيمانه، وعمق يقينه، بل إن النبي - ﷺ - جعله من العشرة المُبشَّرين بالجنة، ولكن ذلك كلّه لم يقف حائلاً أمام غريزته الجنسية عندما رأى أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، بل حتى إنه صرَّح برغبته في الزواج منها بعد وفاة رسول الله ﷺ.

يقول ابن كثير في تفسيره لقول الله تعالى: وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ

عَظِيمًا؛ قال ابن أبي حاتم: حدّثنا عليّ بن الحسين، حدّثنا مُحَمَّد بـن أبي حمّاد، حدّثنا مهران عن سفيان، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عبّاس في قوله تعالى: وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ قال: نزلـت في رجل هَمَّ أن يتزوَّج بعض نـساء النبـي - ﷺ - بعـده، قـال رجـل لسفيان: أَهي عائشة؟ قال: قد ذكروا ذلك. وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عـزم على ذلك طلحـة بـن عبيـد الله رضي الله عنه.[1] وبعـد أن حـصَّن الله - تبـارك وتعالى - الأسرة المسلمة من خطر الاختلاط الجنسي، وضع الـضوابط التي تضبط عملية التزاور بين الأهـل والأقـارب، عنـدما حـدَّد آداب الزيارة والاستئذان، وماهية الأشخاص المسموح لهـم بالـدخول عـلى المرأة في بيتها، ومجالستها، ومؤاكلتها، والاختلاط بهـا، دون أن يكـون في هذا الاختلاط أيّ خطر جنسي، باعتبـارهم محارمهـا. فحـدَّد الله - سـبحانه - شخـصياتهم بدقّـة متناهيـة في آيتَـيْن، إحـداهما في سـورة الأحزاب، والأخرى في سورة النور، فقال تعالى:

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾[2].

---

(1) تفسير ابن كثير، 3 - 506.

(2) الأحزاب 55.

ويقول المولى سبحانه وتعالى:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (1).

يقول ابن كثير: هذا أمر من الله – تعالى – للنساء المؤمنات، وغَيْرة منه لأزواجهنَّ عباده المؤمنين، وتمييزاً لهنَّ عن صفة نساء الجاهلية، وفعال المشركات.

وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال: بلغنا – والله أعلم – أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدَّث أن أسماء بنت مرثد كانت في محلّ لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلنَ عليها غير مُتأزّرات، فيبدو ما في أرجلهنَّ من الخلاخل، وتبدو صدورهنَّ

---

(1) النور، 30-31.

وذوائبهنَّ. فقالت أسماء: ما أقبح هذا! فأنزل الله : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ ..الآية.

فقوله تعالى : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ أيْ عمَّا حرَّم الله عليهنَّ من النَّظَر إلى غير أزواجهنَّ، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النَّظَر إلى الرجال الأجانب بشهوة، ولا بغير شهوة أصلاً، واحتجَّ كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذي من حديث الزهري عن نبهان مولى أمّ سلمة، أنه حدّثه أن أمّ سلمة حدّثته أنها كانت عند رسول الله - ﷺ - وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أمّ مكتوم، فدخل عليه، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: احتجبا منه. فقلتُ: يا رسول الله؛ أليس هو أعمى لا يبصرنا، ولا يعرفنا؟! فقال رسول الله ﷺ : أَوَعمياوان أنتما؟! أَوَلستُما تُبصرانه؟! ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهنَّ إلى الأجانب بغير شهوة، كما ثبت في الصحيح[1] أن رسول الله - ﷺ - جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أمّ المؤمنين تنظر إليهم من ورائه، وهو يسترها منهم، حتى ملَّتْ، ورجعتْ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ ؛ قال سعيد بن جبير: عن الفواحش. وقال قتادة وسفيان: عمّا لا يحلُّ لهنَّ. وقال مقاتل: عن

(1) رواه البخاري ومسلم.

الزنا. وقال أبو العالية: كلّ آية نزلت في القرآن يُذكَر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا إلا هذه الآية : ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أنْ لا يراها أحد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أيْ لا يُظهرنَ شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه. قال ابن مسعود: كالرداء، والثياب. يعني على ما كان يتعاناه نساء العرب من المقنعة التي تجلّل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب، فلا حرج عليها فيه؛ لأن هذا لا يمكن إخفاؤه، ونظيره في زيّ النساء ما يظهر من إزارها، وما لا يمكن إخفاؤه. وقال بقول ابن مسعود الحسن، وابن سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيم النخعي، وغيرهم.

وقال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: وجهها، وكفّيها، والخاتم.

ورُوي عن ابن عُمر، وعطاء، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبي الشعثاء، والضحّاك، وإبراهيم النخعي، وغيرهم نحو ذلك، وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نُهينَ عن إبدائها كما قال أبو إسحاق السبيعي عن أبي الأحوص عن عبد الله قال في قوله : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الزينة القرط، والدملج، والخلخال، والقلادة.

وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال: الزينة زينتان، فزينة لا يراها إلا الزوج، الخاتم والسوار. وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب.

وقال الزهري: لا يبدينَ لهؤلاء الذين سمَّى الله ممَّنْ يحلُّ له رؤيتهنَّ إلا الأسورة، والأخمرة، والأقرطة، من غير حسر، وأمَّا عامة الناس؛ فلا يبدو منها إلا الخواتم. وقال مالك عن الزهري **إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا** الخاتم، والخلخال.

ويُحتمَل أن ابن عباس ومَنْ تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفَّيْن، وهذا هو المشهور عند الجمهور، ويُستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سُننه: حدّثنا يعقوب بن كعب الأنطاكي ومؤمّل بن الفضل الحرّاني قالا: حدّثنا الوليد عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن خالد ابن دريك، عن عائشة رضي الله عنها، أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي - ﷺ - وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها، وقال: يا أسماء؛ إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا، وأشار إلى وجهه، وكفَّيْه. لكنْ؛ قال أبو داود وأبو حاتم الرازي هو مُرسَل (خالد بن دريك) لم يسمع من عائشة رضي الله عنها، والله أعلم.

وقوله تعالى: **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** يعني المقانع يعمل لها صنفات ضاربات على صدورهنَّ؛ لتُواري ما تحتها من صدرها، وترائبها، ليُخالفنَ شعار نساء أهل الجاهلية، فإنهنَّ لم يكن يفعلنَ ذلك، بل كانت المرأة منهنَّ تمرُّ بين الرجال مُسفحة بصدرها، لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها، وذوائب شعرها، وأقرطة آذانها، فأمر الله المؤمنات أن يسترنَ في هيئاتهنَّ، وأحوالهنَّ، كما قال تعالى: **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ**

قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ، وقال في هذه الآية الكريمة وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ، والخمر جمع خمار، وهو ما يُخَمَر به أيّ يُغطّى به الرأس، وهي التي يُسمّيها الناس المقانع.

قال سعيد بن جبير وَلْيَضْرِبْنَ، وليشددنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ يعني على النحر والصدر، فلا يُرى منه شيء.

وقال البخاري: حدّثنا أبي عن يونس، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: يرحم اللهُ نساء المهاجرات الأول، لمّا أنزل الله وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ شققنَ مروطهنَّ، فاختمرنَ بها.

وقال أيضاً: حدّثنا أبو نعيم، حدّثنا إبراهيم بن نافع، عن الحسن ابن مسلم، عن صفية بنت شيبة، أن عائشة – رضي الله عنها – كانت تقول: لمّا أُنزلت هذه الآية وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ أخذنَ أزرهنَّ، فَشَقَقْنَهَا من قِبَل الحواشي، فاختمرنَ بها.

وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي، حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يونس، حدّثني الزنجي بن خالد، حدّثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن صفية بنت شيبة، قالت: بينا نحن عند عائشة قالت فذكرنَ نساء قريش وفضلهنَّ، فقالت عائشة – رضي الله عنها –: إن لنساء قريش لفضلاً، وإني – والله – ما رأيتُ أفضل من نساء الأنصار أشدّ تصديقاً لكتاب

الله، ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أُنزلت سورة النور ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ انقلب رجالهنَّ إليهنَّ يتلونَ عليهنَّ ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته، فما منهنَّ امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل، فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحنَ وراء رسول الله - ﷺ - معتجرات كأن على رؤوسهنَّ الغربان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أيْ أزواجهنَّ ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ كلّ هؤلاء محارم للمرأة، يجوز لها أن تظهر بزينتها، ولكنْ؛ من غير تبرُّج. وقوله ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني تظهر بزينتها - أيضاً - للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمَّة؛ لئلا تصفهنَّ لرجالهنَّ، وذلك وإن كان محذوراً في جميع النساء، إلا أنه في نساء أهل الذمّة أشدّ، فإنهنَّ لا يمنعهنَّ من ذلك مانع، فأمَّا المسلمة؛ فإنها تعلم أن ذلك حرام، فتنزجر عنه.

وقد قال رسول الله - ﷺ -: لا تُباشر المرأةُ المرأةَ، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها. أخرجاه في الصحيحَيْن عن ابن مسعود.

وروى سعيد بن منصور في سُننه: حدّثنا إسماعيل بن عياش، عن هشام ابن الفار، عن عبادة بن نسي، عن أبيه، عن الحارث بن قيس، أن

عُمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة: أمَّا بعد؛ فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلنَ الحمامات مع نساء أهل الشِّرْك، فإنه من قبلكَ، فلا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظرَ إلى عورتها إلا أهل ملَّتها.

وقال مجاهد في قوله ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ قال نساؤهنَّ المسلمات، ليس المشركات من نسائهنَّ، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدَي مشركة. وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ قال ابن جرير: يعني من نساء المشركين، فيجوز لها أن تُظهر زينتها لها، وإنْ كانت مشركة، لأنها أَمَتُهَا. وإليه ذهب سعيد بن المسيب.

وقال الأكثرون: بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء، واستدلّوا بالحديث الذي رواه أبو داود: ثنا مُحَمَّد بن عيسى، حدّثنا أبو جميع سالم بن دينار، عن ثابت، عن أنس، أن النبي - ﷺ - أتى فاطمة بعبد قد وَهَبَهُ لها، قال: وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلَيْهَا، وإذا غطَّت به رجلَيْهَا لم يبلغ رأسها، فلمَّا رأى النبي - ﷺ - ذلك قال: إنه ليس عليكَ بأس، إنما هو أبوكِ وغلامكِ.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة خديج الحمصي مولى معاوية، أن عبد الله بن مسعدة الفزاري كان أسود شديد الأدمة، وأنه قد كان النبي - ﷺ - وهبه لابنته فاطمة، فَرَبَّتْهُ، ثم أعتقتْهُ،

ثم قد كان بعد ذلك كلّه مع معاوية أيام صفّين، وكان من أشدّ الناس على عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه.

وروى الإمام أحمد: حدّثنا سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن نبهان، عن أمّ سلمة، ذكرت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: إذا كان لإحداكنَّ مكاتب، وكان له ما يؤدِّى، فلتحتجبْ منه. رواه أبو داود عن مسدد، عن سفيان به.

وقوله ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ يعني كالأجراء والأتباع الذين ليسو بأكفاء، وهم - مع ذلك - في عقولهم وله، ولا هَمَّ لهم في النساء، ولا يشتهونهنَّ.

قال ابن عباس: هو المُغفَّل الذي لا شهوة له.

وقال مجاهد: هو الأبله.

وقال عكرمة هو المُخنَّث الذي لا يقوم ذَكَرُهُ. وكذا قال غير واحد من السلف.

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهنَّ، من كلامهنَّ الرخيم، وتعطُّفهنَّ في المشية، وحركاتهنَّ وسَكَنَاتهنَّ، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك، فلا بأس بدخوله على النساء، فأمَّا إنْ كان مراهقاً أو قريباً منه بحيث يعرف ذلك ويدريه، ويفرّق بين الشوهاء والحسناء، فلا يمكن من الدخول على النساء.

وقوله تعالى: وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ الآية، كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوته، ضربت برجلها الأرض، فيسمع الرجال طنينه، فنهى اللهُ المؤمناتِ عن مثل ذلك.

وكذا إذا كان شيء من زينتها مستوراً، فتحرَّكت بحركة؛ لتُظهر ما هو خفي، دخل في هذا النَّهْي لقوله تعالى: وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ إلى آخره.

ومن ذلك أنها تُنهَى عن التَّعطُّر والتَّطيُّب عند خروجها من بيتها، فيشمّ الرجال طيبها، فقد قال أبو عيسى الترمذي: حدّثنا مُحَمَّد بن بشار، حدّثنا يحيى بن سعيد القطان، عن ثابت بن عمارة الحنفي، عن غنيم بن قيس، عن أبي موسى، رضي الله عنه، عن النبي - ﷺ - أنه قال: كلّ عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فَمَرَّت بالمجلس، فهي كذا، وكذا، يعني زانية، قال وفي الباب عن أبي هريرة، وهذا حسن صحيح، رواه أبو داود والنسائي من حديث ثابت بن عمارة به..

وقوله تعالى: وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ؛ أيْ افعلوا ما آمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كلّ الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهيا عنه والله تعالى هو المستعان.[1]

---

(1) تفسير ابن كثير، **3 - 284** .

والتبس على فَهْم البعض، فظنوا أن العمَّ والخال ليسا من المحارم؛ حيث لم يأتِ الله على ذِكْرهم في الآية السالفة، فأنزل الله - سبحانه وتعالى - من القرآن ما يُوضح به هذا اللبس. فقال تبارك شأنه:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1].

قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[2].

يقول ابن كثير: قال قتادة في قوله حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ هو الاستئذان ثلاثاً، فَمَنْ لم يُؤذَن له منهم، فليرجع. أمَّا الأولى؛ فليسمع الحي،

(1) النساء، 23 .

(2) النور، 27 - 28 .

وأمَّا الثانية؛ فليأخذوا حذرهم، وأمَّا الثالثة؛ فإن شاءوا أذنوا، وإن شاءوا ردّوا. ولا تقفنَّ على باب قوم ردُّوكَ عن بابهم، فإن للناس حاجات، ولهم أشغال، والله أولى بالعذر.

وقال مقاتل بن حيان في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يُسلِّم عليه، ويقول حُيِّيتَ صباحاً، وحُيِّيت مساءً، وكان ذلك تحية القوم بينهم، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه، فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول قد دخلتُ، ونحو ذلك. فيشقّ ذلك على الرجل، ولعلّه يكون مع أهله. فغيَّر الله ذلك كلّه في سِتْر وعفّة، وجعله نقياً مُنزّهاً من الدَّنَس والقذر والدرن، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ الآية.

وهذا الذي قاله مقاتل حسن، ولهذا؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ يعني الاستئذان خير لكم؛ بمعنى هو خير من الطَّرَفَيْن: للمُستأذِن ولأهل البيت ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾، وذلك لما فيه من التَّصرُّف في ملك الغير بغير إذنه، فإنْ شاء أذن، وإن شاء لم يأذن.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ﴾؛ أيْ إذا ردُّوكم من الباب قبل الإذن، أو بعده ﴿فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ﴾؛ أيْ رجوعكم أزكى لكم، وأطهر ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.[1]

الجلباب:

لم يكن المجتمع الحجازي الذي نزل فيه القرآن مجتمعاً محافظاً كحال المجتمع النجدي، وذلك يرجع إلى البون الشاسع في نظرة كُلٍّ من المجتمعَيْن إلى قضية النَّسَب العِرْقي.

فالمجتمع النجدي العدناني، الذي كان شديد التَّمسُّك بعِرْقيَّته، وسُلالته النَّسَبية المُقدَّسة، وشديد الحفاظ على سلامة أصله، وفصله، الذي كان يرى فيه مصدر شرفه، ورفعته، وفوقيَّته، وعُلُوّه على بقية البشر، كان يرى في المجتمع الحجازي اليمني الأصل مجتمعاً وضيعَ النَّسَب، دُونيّ الأصل والفصل. وكان المجتمع الحجازي نفسه يشعر بهذا النَّقْص أمام جيرانه العدنانيين، ويعترف بوضاعة شرفه أمامهم، وينظر لهم نظرة الإكبار والاحترام.

ومن المُسلَّم به أنه كلما بالغ المجتمع في تشبُّثه بعِرْقيّته ازدادت نساؤهم عفَّة، واحتجاباً، واستتاراً في المَلْبَس، والمَسْكَن.

---

(1) تفسير ابن كثير، 3 – 282.

فالمرأة العدنانية كانت أشدّ محافظة في سلوكها، ولباسها، من جارتها اليمنية، وكانت كلّما ازدادت إحداهنَّ شرفاً، وارتقت نَسَباً ظهر ذلك في لباسها، وحشمتها، فكانت الشريفة لا تخرج من البيت إلا لحاجة ماسّة، ولا تظهر إلا مُنقّبة مُتَجَلْبِبَة، ولا تذهب - عادةً - إلى الأسواق لشراء حوائجها، بل تُرسل جواريها، وإماءها، وعبيدها، ليأتوها بما تريد، ولا تُقحِم نفسها في الأعمال الوضيعة، التي تتطلّب الاختلاط المُشين بالرجال، والتَّكشُّف المُعيب في المَلْبَس. تلك الصفات كلّها كانت متلاشية - تقريباً - لدى المرأة الحجازية.

لم تكن المرأة الحجازية تكترث لمسألة الحشمة، والاستتار، وكانت قضية المحافظة في اللباس قضية هامشية عند الحجازية، فلم تلقَ لها بالاً، ولم تُعرها - قطّ - عظيم أهمية.

فكانت المرأة الحجازية تخرج شبه عارية، قد تكشف من جسدها مُعظَمَهُ، فظهر ساقُها، وتعرَّى ذراعاها، وانحسر الخمار عن عنقها، وأذنَيْها، وبدا للعيان جِيْدها، وترائبها، بل وحتى جيوب ثديَيْها. وكان الرجل لا يستطيع التفريق بسهولة بين الحُرَّة والأَمَة، لتشابُه هيأتَيْهما، وتطابق عادات اللباس لديهما.

وكانت أسواق الحجاز تعجُّ بالنساء بالقدر نفسه، الذي كانت تعجُّ فيه بالرجال، وكانت الحجازية لا ترى حَرَجاً في الخروج من منزلها دون مرافق، والاختلاط بالرجال اختلاطاً يُعرّضها - على الدوام - لأنواع الأذى والتَّحرُّش الجنسي.

ولم يكن المجتمع الحجازي يرى في ذلك بأساً، فلم تكن قضية النَّسَب تلك القضية الجوهرية التي تشغل جُلَّ تفكيره، وهو ما يُفسِّر التراخي الذي كان يُبديه المجتمع الحجازي تجاه القضايا الجنسية في العموم، وقضية لباس المرأة وحجابها على وجه الخصوص. ولعلّه من الحكمة الإلهية أن يختار الله - سبحانه وتعالى - بداية هذا المجتمع؛ ليُنزل عليه شريعته الأولى.

يقول الله عزّ وجلّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[1].

ذكر الشنقيطي أنه قد قال غير واحد من أهل العلم إن معنى ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أنهنَّ يسترنَ بها جميع وجوههنَّ، ولا يظهر منهنَّ شيء إلا عين واحدة تُبصر بها، وممَّنْ قال به ابن مسعود، وابن عباس، وعبيدة السلماني، وغيرهم[2].

وقال الكلبي: كان نساء العرب يكشفنَ وجوههنَّ، كما تفعل الإماء، وكان ذلك داعياً إلى نَظَر الرجال لهنَّ، فأمرهنَّ الله بإدناء

---

(1) الأحزاب، 59.

(2) أضواء البيان، 6 - 243 .

الجلابيب ليسترنَ - بذلك - وجوههنَّ، ويُفهَم الفرق بين الحرائر، والإماء.

والجلابيب جمع جلباب، وهو ثوب أكبر من الخمار، وقيل هو الرداء. وصورة إدنائه عند ابن عباس أن تلويه على وجهها حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تُبصر بها، وقيل أن تلويه حتى لا يظهر إلا عيناها، وقيل أن تُغطِّي نصف وجهها.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ ؛ أيْ ذلك أقرب إلى أن يُعرَف الحرائرُ من الإماء، فإذا عُرِفَ أن المرأة حُرَّة لم تُعارَض بما تُعارَض به الأَمَة، وليس المعنى أن تُعرَف المرأة حتى يُعلَم مَنْ هي، إنما المراد أن يُفرَّق بينها وبين الأَمَة؛ لأنه كان بالمدينة إماء يُعرفنَ بالسوء، وربما تعرَّض لهنَّ السفهاء[1].

ويقول الشافعي: وقوله:ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ قيل يُعرفنَ أنهنَّ حرائر، فلا يُتبعنَ. ويمكن أن يُقال: المراد يعرفنَ أنهنَّ لا يزنينَ؛ لأن مَنْ تستر وجهها، مع أنه ليس بعورة، لا يُطمَع فيها أنها تكشف عورتها، فيُعرفنَ أنهنَّ مستورات.[2]

«وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في الآية قال: كانت الحُرَّة تلبس لباس الأَمَة، فأمر اللهُ نساءَ المؤمنين أن

(1) تسهيل لعلوم التنزيل، 3 - 144.

(2) التفسير الكبير، 125 - 198.

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، وأدنى الجلباب أن تقنّع، وتشدّه على جبينها.

وأخرج ابن سعد عن الحسن - رضي الله عنه - في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ قال: إماؤكنَّ بالمدينة، يتعرَّض لهنَّ السفهاء، فيؤذينَ، فكانت الحُرَّة تخرج، فيحسب أنها أَمَة، فتُؤذى، فأمرهنَّ اللهُ أن ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي - رضي الله عنه - في الآية قال: كان أُناس من فُسَّاق أهل المدينة بالليل حين يختلط الظلام، يأتون إلى طُرُق المدينة، فيتعرَّضون للنساء، وكانت مساكن أهل المدينة ضيّقة، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطُّرُق، فيقضينَ حاجتهنَّ، فكان أولئك الفُسَّاق يتبعون ذلك منهنَّ، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب، قالوا هذه حُرَّة، فَكَفُّوا عنها، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب، قالوا هذه أَمَة، فوثبوا عليها». [1]

لم يكن الزنى مُحَرَّماً على الإماء، بل كانت إحدى المِهَن الرسمية المُعترَف والمُصرَّح بها للإماء هي مهنة الزنى. وكان الإماء يجنينَ من

---

(1) الدرّ المنثور، 6 - 660 .

وراء هذه المهنة دخلاً جيداً، بل كان أسيادهنَّ يـدفعنهنَّ لممارسـة هـذه المهنة، ويأخذون عليهنَّ ضرائب دَخْل.

وكان بعضهم يبني بيوت الدعارة لإمائه، ويعمل قوَّاداً لهـنَّ، لـمَا تعود عليه وعليهنَّ تلك المهنة من ربْح وفير. وكـان الـسيد يطـير مـن الفـرح لـو جاءتـه أَمَتُـهُ حُبلى مـن الزنـى؛ حيـث إن أبناءهـا وبناتهـا سيكونون عبيداً وإماء له، يستخدمهنَّ في حاجته، أو يبـيعهم في سـوق النخاسة، فيجنون له ثروة طائلة. وكان لا يجوز للأَمَة أن تـستر بـدنها، أو تخفي محاسنها، حتى لا تصدَّ الزبائن، وتُنفِّر طالبي المتعة.

ذكر ابن كثير في تفسيره لقول الله تعالى:

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

«قال عبد الرّزّاق: أخبرنا معمر عن الزهري أن رجلاً من قريش أُسِرَ يوم بدر، وكان عند عبد الله بن أُبي أسيراً، وكانت لعبد الله بن أُبي جارية يُقال لها معاذة، وكان القرشي الأسير يراودها على نفسها، وكانت مسلمة، وكانت تمتنع منه لإسلامها، وكان عبد الله بن أُبي يُكرهها على ذلك، ويضربها، رجاء أن تحمل من القرشي، فيطلب فداء ولده، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾.قال السدي: أُنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أبي ابن

---

(1) النور، 33 .

سلول رأس المنافقين، وكانت له جارية تُدعى مُعاذة، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها ليُواقعها إرادة الثواب منه، والكرامة له. فأقبلت الجارية إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فشكت إليه ذلك، فذكره أبو بكر للنبي - صلى الله عليه وسلم - فأمره بقَبْضها، فصاح عبد الله بن أبي: مَنْ يعذرني من مُحَمَّد، يغلبنا على مملوكتنا. فأنزل الله فيهم هذا. وقال مقاتل بن حيان: بلغني - والله أعلم - أن هذه الآية نزلت في رجلَيْن كانا يُكرهان أَمَتَيْن لهما، إحداهما اسمها مسيكة، وكانت للأنصار، وكانت أُميمة أمّ مسيكة لعبد الله ابن أبي، وكانت مُعاذة وأروى بتلك المنزلة. فأتت مسيكة وأمّها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكرتا ذلك له، فأنزل الله في ذلك **وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ** يعني الزنا.

وقوله تعالى: **إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا** هذا خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له.[1]

وقوله تعالى: **لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**؛ أيْ من خراجهنَّ، ومهورهنَّ، وأولادهنَّ.

(1) يشير ابن كثير إلى الخلاف الذي دار بين المُفسِّرين حول معنى قوله تعالى: **إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا**؛ حيث إنهم حملوا هذه الجملة فوق ما تحتمل، وبدأ كلّ منهم يستعرض عضلاته الفلسفية، حتى غاصوا في جَدَل سفسطائي عقيم. أمّا ابن كثير - رحمه الله -؛ فكان أحكمهم وأكثرهم ترفُّعاً عن التَّجرُّؤ على كلام الله، لذلك؛ فإنه لم يُعلِّق على هذه الجملة بتاتاً.

نهى رسول الله - ﷺ - عن كَسْب الحجام، ومهر البغي، وحلوان الكاهن، وفي رواية: مهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث، وثمن الكلب خبيث. [1]

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أيْ لهنَّ كما تقدَّم في الحديث». [2]

ولم يكن التَّحرُّش الجنسي بالأَمَة مُحرَّماً، بل حتى إن اغتصابها لم يكن بالجريمة التي يعاقب عليها القانون. لذلك؛ فقد كان من العار على القبيلة الشريفة أن تخرج نساؤها مُتكشِّفات كما تتكشَّف الإماء؛ لأن ذلك من شأنه أن يعرضهنَّ لما تتعرَّض إليه الإماء من تحرُّش، وربما للاغتصاب، عندها لن يكون الشابّ ملوماً، إنْ لم تُظهِر المرأة ما يُميِّزها عن الإماء؛ حيث إن أعراض الإماء مُباحة تمام الإباحة، وليس على طالب المُتعة أدنى حرج في أن ينهل منها كيف وأنَّى شاء.

كان شباب المدينة الثائر المُستثار يندفع مُتدفّقاً خلف شهوته؛ لينتشر في طُرُقات المدينة، وأزقّتها، لاهثاً خلف تلك الأجساد العارية والملابس المُتشمّرة، التي أظهرت من تضاريس الإثارة ما لم تقدر هرموناتهم على مقاومته، فيتتبّعون آثار أولئك الإماء والجواري

---

(1) رواه مسلم.

(2) تفسير ابن كثير، 3 - 290 .

الحسان، علَّهم يجدون لديهنَّ ما يُطفئ لهيب غرائزهم، ويُلطِّف من حدَّة نيران شهواتهم.

وهو المنظر الذي يتطابق - تماماً - مع مناظر مراهقينا المُنتشرين في شوارعنا، وأسواقنا، تطير أعينهم خلف كلّ ذراع انحسرت عنه عباءته، أو ساق مُدَلْدَلَة من باب السيارة قد لمع بريق حُسنها، فخطف أبصارهم، أو ترائب صدر تكشَّفت عنه طرحته؛ بقَصْد، أو غير قَصْد.

قد نلوم الشابَّ، ونضربه، ونلعنه، ونمسح بوجهه الأرض، وقد ننعته بأبشع الأوصاف، ونُسمّيه بالفاسق، والفاجر، والداعر، والعربيد، قد نسجنه، ونُنزل به أقصى درجات العقوبة، ولكنَّ طبيعته الفسيولوجية وتركيبته التشريحية ستُخلِّصه - في النهاية - من أيدينا، شئنا ذلك، أم أبينا، لينجو بفعلته - تماماً - كأنه لم يرتكبها، ويترك عار فضيحته في المكان نفسه الذي ارتكبها فيه؛ ليغسل جميع آثارها مع أول غسل للجنابة، وتخرج من جسده كافة تبعاتها، مع ماء الوضوء الأول.

أمَّا هي؛ فمهما ناح النائحون، وزعق الناهقون بحقوق المرأة، ومساواتها، فإنهم لن يستطيعوا أن يستأصلوا رحمها، أو يُوقفوا ضخَّ البيض من مبايضها.

لن يستطيعوا أن يُغيِّروا من تركيبة جسدها، الذي لا يكاد يشمّ رائحة النطفة، حتى يلتقطها بشغف وشراهة، فما يلبث أن يُحوّلها مضغة، فعلقة، فعظاماً، فلحماً، ثم يُخرجها طفلاً، على قدر ما فيه من جمال

وبراءة، على قدر ما يحمله من عار وخزي وفضيحة وخسَّة وذل لها، وتفكُّك لأسرتها، وعائلتها، وقبيلتها، بل ولمجتمعها بأسره مدى الحياة.

لقد وضع الله - سبحانه وتعالى - مقاليد البناء الاجتماعي بأسره في يد المرأة، فكان حقّاً عليه أن يُعينها على تحمُّل تلك المسئولية الضخمة من خلال شريعته المُطهَّرة.

أبناء الإماء:

قال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو عبد الله الطهراني فيما كتب إلي، حدّثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ابن خثيم، عن صفية بنت شيبة، عن أمّ سَلَمَة قالت: لمَّا نزلت هذه الآية ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهنَّ الغربان من السكينة، وعليهنَّ أكسية سود يلبسنها[1].

استجاب نساء الأنصار استجابة جماعية مباشرة لأمر الله عزّ وجلّ، حتى إن استجابتهم السريعة تلك أصابت كلاً من أمّ سَلَمَة وعائشة رضي الله عنهما بالدهشة والإكبار في الوقت نفسه. ولربما كان لذلك الامتثال القوي والتنفيذ الفوري لآية الجلباب تفسيره النفسي العميق.

فالجلباب بصيغته المُفصَّلة في الآية الكريمة كما فهمها كبار الصحابة والتابعون كان مُطبَّقاً بحذافيره لدى القبائل العدنانية، وكان شعاراً للشرف والعُلُوّ ورمزاً للامتياز والفوقية في الحَسَب والنَّسَب،

---

(1) تفسير ابن أبي حاتم، 10- 3154 .

ولذلك؛فقد كان مُحَرَّماً على الإماء والجواري ارتداء الجلباب بالصيغة نفسها، والطريقة التي تفعلها ربّاتهنَّ؛ حيث إن في ذلك شيئاً من الامتهان والتطاول على سيداتهنَّ، والتقليل من شأن ذلك الشعار الاستعلائي الذي يتميّزنَ به على مَنْ هنَّ دونهنَّ في الشرف.

ولربما كان هذا العُرْف سائداً ليس - فقط - على الجواري والإماء، بل حتى على نساء القبائل التي هي أدنى شرفاً من العدنانيين، وهو ما جعل الحجازيات، مع إكبارهنَّ وإجلالهنَّ لهذا الشعار الاستعلائي الذي يختصُّ به شريفات نجد، إلا أن العُرْف السائد في الجزيرة كان يمنعهنَّ من محاكاته.

ولربما كان سبب تحرُّجهنَّ من محاكاة لباس النجديات هو خشيتهنَّ من أن يَظهرنَ وكأنهنَّ يتبرَّأنَ من أصلهنَّ، ويحتقرنَ واقعهنَّ، ويسعينَ لتغيير جلودهنَّ، وتزوير حقيقتهنَّ بتقليد شريفات نجد، ومحاكاتهنَّ في الهيئة والملبس.

ولربما جاء التشريع الإلهي ليُصادف هوى في نفوس الحجازيات دفعهنَّ للمسارعة في تطبيقه والتَّشبُّث به بكلّ قواهنَّ، فهو هدية من الله - سبحانه وتعالى - ليرفع من قدرهنَّ، ويرتقي بمستواهنَّ الاجتماعي لمستوى شريفات بني عدنان، وسيدات ربيعة ومضر.

لقد فهم الصحابة - رضوان الله عليهم - هذا المعنى تمام الفَهْم، وخصوصاً أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

يقول الجصَّاص: إن الأَمَة ليس عليها ستر وجهها، وشعرها؛ لأن قوله تعالى: وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ظاهره أنه أراد الحرائر، وكذا رُوي في التفسير، لئلا يكنَّ مثل الإماء اللاتي هنَّ غير مأمورات بسترْ الرأس والوجه. فجعل السترْ فرقاً يُعرَف به الحرائر من الإماء.

وقد رُوي عن عمر أنه كان يضرب الإماء، ويقول: اكشفنَ رؤوسكنَّ، ولا تشبَّهنَ بالحرائر[1].

«وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي قلابة - رضي الله عنه - قال: كان عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - لا يدع في خلافته أَمَة تقنع، ويقول: إنما القناع للحرائر؛ لكيلا يُؤذينَ.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد، عن أنس - رضي الله عنه - قال: رأى عمر - رضي الله عنه - جارية مُقنَّعة، فضربها بدُرَّته، وقال: ألقِ القناعَ، لا تشبَّهينَ بالحرائر»[2].

«والأمة يُباح النَّظَر منها إلى ما يظهر - غالباً - كالوجه، والرأس، واليدَيْن، والساقَيْن؛ لأن عمر - رضي الله عنه - رأى امرأة مُتلثِّمة، فضربها بالدُّرَّة، وقال: يا لكاع؛ تتشبَّهينَ بالحرائر.

---

(1) أحكام القرآن للجصَّاص، 5 - 245 .

(2) الدُّرُّ المنثور، 6 - 660 .

وروى أبو حفص بإسناده أن عمر كان لا يدع أَمَة تقنَّع في خلافته، وقال: إنما القناع للحرائر. ولو كان نَظَرَ ذلك منها مُحَرَّماً لم يمنع من سَتره»[1].

يجدر التنويه على ذلك اللّبس الذي وقع فيه علماء هذه البلاد الأفاضل في تطبيقهم لشريعة الحجاب على غير المسلمات من الزائرات والمقيمات في المملكة، فالحجاب فريضة على نساء المسلمين، دون غيرهنَّ من النساء، بل إنه يجب علينا مَنْع غير المسلمات من ارتدائه في بلاد المسلمين؛ حيث إنه لباس تكريم، وشعار تشريف، لا ينبغي امتهانه، ولا يجوز لغير المسلمات محاكاته، فهنَّ أدنى من أنْ يرتفع بهنَّ الشرف لوَضْعه.

هكذا كان التنزيل الإلهي في غاية الحكمة والعبقرية التشريعية، ليأتي متناغماً مع الطبيعة البشرية؛ بخيرها، وشرِّها، منسجماً مع عادات المجتمع وثقافته، بل وحالته النَّفْسية، فكان الحجاب - في ظاهره - شعاراً استعلائياً، ورمزاً للشرف والسيادة، ولكنه يحوي - بين طيَّاته - حكمة خفية بالغة العمق، تتمثَّل في قدرته الإعجازية على حفْظ المؤسّسة الزوجية، وصيانتها.

فالأَمَة كانت رمزاً للتَّفسُّخ والانحلال الجنسي، لا تصلح لأن تكون نُواة تتكوَّن حولها أسرة سليمة صحِّيَّة متماسكة البناء، لذلك؛

---

(1) المغني، 7 – 78.

فقد استثناها الشرع - في بداية الأمر - من الانضمام إلى المنظومة الاجتماعية، ولم يحسبها ضمن القائمة الاعتبارية للثقافة الأسرية.

ولكنَّ ذلك لم يدم طويلاً، فالله - جلّ جلاله - هو خالق الأقدار، ويعلم ما يخبّئه المستقبل لتلك الأَمَة، فكانت شريعته المُطهَّرة تَحْسِب لكلّ شيء وقته بكلّ دقّة. فبعد ترسيخ مفهوم الحجاب كرمز إلزامي للحرية والشرف والسيادة، بدأت عملية عَفْعَفَة الإماء بتحريرهنَّ أولاً، ثم تسييدهنَّ وتطهيرهنَّ بجلباب العفَّة والشرف.

بعد انتصار النبي - ﷺ - على يهود خيبر، سبى صفيَّة ابنة سيِّدهم حيي بن أخطب؛ لتكون له أَمَة، ولكنه - ﷺ - قرَّر أن يتزوّجها، فهي سيدة شريفة من بيت أشراف، قبل أن تُسبَى، فكان شعار تحوُّلها من طبقة العبيد إلى طبقة السادة الأشراف هو الحجاب.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: أقام رسول الله بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنى عليه بصفية، فدعوتُ المسلمين إلى وليمته، وما كان فيها من خبز ولحم، وما كان فيها إلا أن أمر بلالاً بالأنطاع، فبُسِطَتْ، فألقى عليها التمر، والإقط، والسمن.

فقال المسلمون: إحدى أمّهات المؤمنين، أو ما ملكت يمينه؟ فقالوا: إنْ حجَّبها، فهي إحدى أمّهات المؤمنين، وإنْ لم يحجّبها فهي ممَّا ملكتْ يمينه. فلمَّا ارتحل، وطأ لها خلفه، ومدَّ الحجاب.[1]

---

(1) رواه البخاري.

وروى ابن جرير أنه بعد انتصار النبي - ﷺ - على يهود بني قريظة، بعث رسولُ الله سعداً بن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد، فابتاع له بهم خيلاً وسلاحاً، وكان رسول الله- ﷺ - قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عَمرو بن خنافة، إحدى نساء بني عَمرو بن قريظة، فكانت عند رسول الله ﷺ، حتى توفي عنها وهي في ملكه، وقد كان رسول الله - ﷺ - عرض عليها أن يتزوّجها، ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله؛ بل تتركني في ملكك، فهو أَخَفُّ عليَّ وعليكَ. فتركها[1]

إن الظروف الثقافية التي يُولد فيها الانسان، والبيئة الاجتماعية التي يتربَّى في أجوائها، لابد وأنْ تحفر آثارها عميقة في طبيعته النفسية، وتكوينه الأخلاقي والفكري.

والأَمَة - بوضعيّتها تلك - كانت تُولَد في أجواء تسودها الإباحية والتَّفسُّخ الجنسي، وتتربَّى في ظروف من الاحتقار والازدراء والمهانة والذُّلّ الذي يغرس في أعماق ثقافتها، ويطبع على سمات شخصيتها، الشعورَ الدائمَ بالدُّونية والوضاعة والحقارة وانعدام الثقة بالنفس أو احترام الذات.

تنشأ الأَمَةُ على الاعتقاد بأنها ما خُلِقَتْ إلا للاستخدام المُبتَذَل، فجميع قدراتها وإمكاناتها وجهودها هي ملك لغيرها، لا يحقُّ لها

---

(1) تاريخ الطبري، 2 – 103.

الاستفادة منها. وجسدها وما يحويه مُستباح لكلّ غاد ورائح، تُضاجع مَنْ تعرف، ومَنْ لا تعرف، بإرادتها، أو بدونها، وفي الأوقات التي يحدّدها مَنْ يشاء بغير حساب. تتنقل - على الدوام - من يد سيد إلى يد سيد، فلا يبقى في المجتمع مَنْ لا يعرف جميع عناوين جسدها، ومداخله، ومخارجه.

بل إنه حتى الأَمَة المتزوّجة يحقُّ لسيدها الذي يملكها أن ينظر إلى كامل جسدها عارياً في ما دون السّرّة إلى الركبة، وأن يُخرجها من بيت زوجها في أيّ ساعة شاء، ليُكلّفها من أعمال الخدمة والتسخير ما يحلو له.

والأَمَة كانت - على الدوام - موضع شكّ وريبة، حتى لو كانت متزوّجة، لذلك؛ فقد كان العرب يأنفون من إضافة ما تلده لهم الإماء إلى أنسابهم، فأرحام الإماء لم تكن تلك الأرحام المُحصَّنة، التي يمكن التّأكُّد من ماهية ما تحويه.

إن تلك الشخصية المُحطَّمة للأَمَة لم تكن تُؤهّلها للتربُّع على عرش الأسرة، والأخذ بمقاليد التربية والتنشئة النفسية والشخصية لأفراد تلك الأسرة، الذين يُشكّلون لبنة من لبنات البناء الاجتماعي. لذلك؛ فقد كره الإسلام أن تتكوَّن القواعد الأساسية للصرح الإسلامي الاجتماعي من لبنات فاسدة.

قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ

بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

يقول الشنقيطي: دلَّت الآية هذه على أن الحُرَّ لا يجوز له أن يتزوَّج المملوكة المؤمنة إلا إذا كان غير مُستطيع تزويج حُرَّة لعدم الطول عنده، وقد خاف الزنى، فله - حينئذ - تزوُّج الأَمَة بإذن أهلها المالكين لها، ويلزمه دَفْع مهرها وهي مؤمنة عفيفة، ليست من الزانيات، ولا مُتَّخذات الأخدان.

ومع هذا كلِّه؛ فصبره عن تزويجها خير له، وإذا كان الصبر عن تزويجها مع ما ذكرنا من الاضطرار خيراً له، فمع عدمه أولى بالمنع. وبما ذكرنا تعلَّم أن الصواب قول الجمهور من مَنْع تزويج الحُرّ الأَمَة إلا بالشروط المذكورة في القرآن كقوله تعالى: وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً وقوله ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ[2].

«أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سُننه عن ابن عباس وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً يقول مَنْ لم يكن له سعة أن

---

(1) النساء، 25 .

(2) أضواء البيان، 5 - 530 .

يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يقول الحرائر مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فلينكح من إماء المؤمنين مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ يعني عفائف غير زوان في سرّ ولا علانية وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٍ يعني أخلاء فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٍ يعني إذا تزوّجت حُرّاً، ثم زنت فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ قال من الجلد ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ هو الزنا، فليس لأحد من الأحرار أن ينكح أَمَة إلا أن لا يقدر على حُرَّة، وهو يخشى العَنَت. وَأَن تَصۡبِرُواْ عن نكاح الإماء فهو خَيۡرٞ لَّكُمۡ.

وأخرج عبد الرّزّاق وابن أبي شيبة وابن جرير عن الحسن، أن رسول الله - ﷺ - نهى أن تُنكَح الأَمَة على الحُرَّة، وتُنكح الحُرَّة على الأَمَة، ومَنْ وجد طولاً لحُرَّة، فلا ينكح أَمَةً.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن مجاهد وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا يعني مَنْ لم يجد منكم غنى أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يعني الحرائر، فلينكح الأَمَة المؤمنة وَأَن تَصۡبِرُواْ عن نكاح الإماء خَيۡرٞ لَّكُمۡ وهو حلال»[1].

ورُوي عن ابن عباس وجابر وسعيد بن جبير والشعبي ومكحول: لا يتزوَّج الأَمَة إلا أنْ لا يجد طولاً إلى الحُرَّة.

---

(1) الدُّرّ المنثور، 2 - 489 .

ورُوي عن مسروق والشعبي قال: نكاح الأَمَة بمنزلة الميتة والدم ولحم الخنزير لا يحلّ إلا لمُضطرٍّ.

وعن عطاء وجابر بن زيد أنه إن خشي أنْ يزني بها تزوَّجها.

وعن عبدالله بن مسعود قال: لا يتزوّج الأَمَة على الحُرَّة إلا المملوك.

وقال عمر وعليّ وسعيد بن المسيب ومكحول وآخرون: لا يتزوَّج الأَمَة على الحُرَّة.

وقال إبراهيم: يتزوَّج الأَمَة على الحُرَّة إذا كان له منها ولد، وقال إذا تزوَّج أَمَة وحُرَّة في عقد واحد بطل نكاحهما جميعاً.

وقال ابن عباس ومسروق: إذا تزوَّج حُرَّة فهو طلاق الأَمَة. وقال إبراهيم في رواية: يُفرَّق بينه وبين الأَمَة إلا أنْ يكون له منها ولد.

وقال الشعبي: إذا وجد الطول إلى الحُرَّة بطل نكاح الأَمَة.

وروى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال: لا تُنكَح الأَمَة على الحُرَّة إلا أن تشاء الحُرَّة، ويُقسَم للحُرَّة يومَيْن وللأَمَة يوماً. قال أبو بكر: وهذا يدلُّ على أنه كان لا يرى تزويج الأَمَة على الحُرَّة جائزاً إن لم ترضَ الحُرَّة.

واختلفوا فيمَنْ يجوز أن يتزوَّج من الإماء، فرُوي عن ابن عباس أنه قال: لا يتزوَّج من الإماء أكثر من واحدة. وقال إبراهيم ومجاهد

والزهري: يجمع أربع إماء إنْ شاء. فاختلف السَّلَفُ في نكاح الأَمَة على هذه الوجوه.

واختلف فقهاء الأمصار في ذلك أيضاً، فقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومُحَمَّد والحسن بن زياد: للرجل أن يتزوَّج أَمَة إذا لم تكن تحته حُرَّة، وإن وجد طولاً إلى الحُرَّة، ولا يتزوّجها إذا كانت تحته حُرَّة. وقال سفيان الثوري: إذا خشي على نفسه في المملوكة، فلا بأس بأن يتزوَّجها، وإن كان موسراً. وقال مالك والليث والأوزاعي والشافعي: الطول المال، فإذا وجد طولاً إلى الحُرَّة لا يتزوَّج أَمَة، وإنْ لم يجد طولاً لم يتزوّجها - أيضاً - حتى يخشى العَنَتَ على نفسه.

واتفق الثوري والأوزاعي والشافعي أنه لا يجوز له أن يتزوَّج أَمَة وتحته حُرَّة، ولا يُفرِّقون بين إذن الحُرَّة في ذلك، وغير إذنها. وقال ابن وهب عن مالك لا بأس أن يتزوَّج الرجل الأَمَة على الحُرَّة والحُرَّة بالخيار. وقال ابن القاسم عنه في الأَمَة تُنكَح على الحُرَّة: أرى أن يُفرَّق بينهما، ثم رجع، وقال: تُخيَّر الحُرَّة إنْ شاءت أقامتْ، وإنْ شاءتْ، فارقتْ.

وسُئِل مالك عن رجل تزوَّج أَمَة وهو ممَّنْ يجد طولاً إلى الحُرَّة قال: أرى أن يُفرَّق بينهما. فقيل له إنه يخاف العَنَتَ، قال: السوط يُضرَب به.[1]

(1) أحكام القرآن للجصَّاص، 3 – 109.

في هذه الآية إعجاز بلاغي عظيم، فلفظ «ٱلْمُحْصَنَـٰتِ» ورد بثلاث معان مختلفة تمام الاختلاف. فجاء اللفظ الأول بمعنى الحرائر الشريفات وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ، وهنَّ ذوات الأصل والفَضْل والنَّسَب الحُرّ، اللاتي وُلِدْنَ حرائر، ونشأن على العفَّة والشرف والقِيَم والمبادئ والأخلاق، فهنَّ أبعد ما يكنَّ عن الشبهات الجنسية والتَّفسُّخ الأخلاقي، وهنَّ مَنْ يُعتمد عليهنَّ في حفْظ النَّسَب وصيانة الأسرة وتربية الأبناء على الصِّدْق والطهارة والعفاف والقِيَم والفضيلة التي تربَّينَ ونشأنَ عليها.

قال ابن جرير: ثم اجتمع الناس بمكَّة لبيعة رسول الله على الإسلام، فجلس لهم فيما بلغني على الصفا وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا. قال: فلمَّا فرغ من بيعة الرجال بايعَ النساء وفيهنَّ هند بنت عتبة مُتنقِّبة مُتنكِّرة لحدثها، لما كان من صنيعها بحمزة، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بحدثها ذلك.

فلمَّا دنينَ من رسول الله ليُبايعهنَّ قال: بايعنني على أنْ لا تشركنَ بالله شيئاً، فقالت هند: والله؛ إنكَ لتأخذ علينا مالا تأخذه من الرجال.......ثم قال: ولا تزنينَ، فقالت: يا رسول الله؛ وهل تزني الحُرَّة؟!......... إلى آخر الحديث.[1]

---

(1) البداية والنهاية، 4 – 319.

فالحُرَّة - بتربيتها الشريفة - مُنزَّهة من الشبهات، معصومة من الخطأ.

أمَّا اللفظ الثاني المُتمثّل في قوله تعالى: مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فجاء إمَّا بمعنى العزم على التَّعفُّف والاحتشام، أو بمعنى التوبة من الزنى والدعارة، وعقد النية الصادقة على التَّطهُّر التّامّ من جميع الأدران الجنسية. وهو مُرادف لمعنى التَّحصُّن في قوله تعالى : وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا أيْ تعفُّفاً واحتشاماً، أو توبة من الزنى إنْ كنَّ فيما سلف يمارسنه.

يقول ابن جرير: حدّثنا المثنى، قال: ثنا عبد الله بن صالح قال: ثنا معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن بن عباس قوله: مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ يعني تنكحوهنَّ عفائف غير زواني في سرّ، ولا علانية، وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ يعني أخلاء.

وقال: حدّثني مُحَمَّد بن سعد قال، ثنا أبي قال: ثنا عمي قال: ثنا أبي عن أبيه عن بن عباس قوله: غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ المسافحات المعالنات بالزنى، وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ذات الخليل الواحد.[1]

أمَّا اللفظ الثالث؛ فهو ذُو معنى عجيب فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ.

---

(1) تفسير الطبري، 5 - 19.

اختلف القُرَّاء في قراءة ذلك، فقرأه بعضهم: فإذا أَحصنَّ بفتح الألف. بمعنى إذا أَسلمنَ، فصرن ممنوعات الفروج من الحرام بالإسلام.

وقرأه آخرون: فإذا أحصنَّ بمعنى فإذا تزوَّجن، فصرنَ ممنوعات الفروج من الحرام بالإزواج.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان مُستفيضتان في أمصار الإسلام، فبأيّتهما قرأ القارئ فمُصيب في قراءته.[1]

وقد اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك نظير اختلاف القُرَّاء في قراءته، فقال بعضهم: معنى قوله فإذا أحصنَّ فإذا أسلمنَ، ذُكر ذلك عن عبدالله ابن مسعود والشعبي والسدي وسالم مولى أبي حذيفة.

وقال آخرون: معنى قوله فإذا أحصنَّ؛ أيْ فإذا تزوَّجنَ. وهو ما قال به ابن عباس رضي الله عنه.

وقال مجاهد: إحصان الأَمَة أن ينكحها الحُرُّ، وإحصان العبد أن ينكح الحُرَّة.

وعن سعيد بن جبير يقول: لا تُضرَب الأَمَة إذا زَنَتْ ما لم تتزوَّج.

ورُوي عن الحسن في قوله فَإِذَا أُحْصِنَّ قال أحصنتهنَّ البعولة، وهو قول قتادة أيضاً.[1]

---

(1) تفسير الطبري، 5-21 .

وفي تأويل قوله تعالى: فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ. يعني جلَّ ثناؤه بقوله: فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فإنْ أتت فتياتكم وهنَّ إماؤكم بعد ما أُحصنَّ بإسلام، أو أُحصنَّ بنكاح بِفَاحِشَة وهي الزنى فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ. يقول فعليهنَّ نصف ما على الحرائر من الحَدِّ إذا هنَّ زنينَ (الحرائر) قبل الإحصان بالأزواج. والعذاب الذي ذكره الله - تبارك وتعالى - في هذا الموضع هو الحَدُّ. وذلك النصف الذي جعله الله عذاباً لِمَنْ أتى بالفاحشة من الإماء إذا هُنَّ أحصنَّ خمسون جلدة، ونَفْي ستة أشهر، وذلك نصف عام؛ لأن الواجب على الحُرَّة إذا هي أتت بفاحشة قبل الإحصان بالزوج جَلْد مائة ونَفْي حول (سنة كاملة)، فالنصف من ذلك خمسون جلدة ونَفْي نصف سنة، وذلك الذي جعله الله عذاباً للإماء المُحصَّنات إذا هنَّ أتينَ بفاحشة[2].

وعليه؛ فيُفهَم من مفهوم الشرط في قوله فَإِذَا أُحْصِنَّ أنَّ الأَمَة التي لم تتزوَّج لا حَدَّ عليها إذا زنت؛ لأنه - تعالى - علَّق حدَّها في الآية

---

(1) تفسير الطبري، 5-23 .

(2) المرجع السابق، 5 - 24.

بالإحصان. وتمسَّك بهذا المفهوم ابن عباس وطاوس وعطاء وابن جريج وسعيد بن جبير وأبو عبيد القاسم بن سلام وداود بن علي[1].

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾.. يا له من معنى غامض، ولكنْ؛ لعلَّنا بالتمعُّن في كلمة «نصف» نقترب قليلاً من فكِّ بعض غموضه. فالنصف هو 50٪. بمعنى أن الأَمَة التائبة، أو المُتطهِّرة، أو العازمة على التَّعفُّف، فإنها مهما بلغ بها من درجات الصِّدق والإخلاص والعزيمة على التوبة، لن تستطيع أن تتجاوز ما مقداره 50٪ من درجة عفاف الحُرَّة الشريفة، التي وُلِدَت على العفاف، وتربَّت على القِيَم والأخلاق والحشمة والمبادئ، وكانت حصانتها الجنسية حصانة وراثية مُتأصِّلة.

والطبع - دائماً - يغلب التَّطبُّع، فالتي تربَّت على الإباحية الجنسية منذ نعومة أظفارها يصعب عليها في كبرها أن تُغيِّر جلدتها، وتتطبَّع بطباع العفيفات، تلك الطباع الغريبة عليها، والثقيلة على نفسها، فمهما حاولت أن تضغط على نفسها، وتحارب شهواتها، فإنها لن تستطيع أن تمحو من شخصيتها سجاياها المُتأصِّلة في أعماق تربيتها، وثقافتها.

أمَّا بنت الناس، أو بنت الأصول؛ فإن العفَّة هي جزء من شخصيتها الأصيلة، التي لا تستطيع - هي ذاتها - أن تنقلب عليها، مهما حاولت.

---

(1) أضواء البيان، 1- 240 .

فلو حاولت الشريفة أن تتكشَّف، فإنها تشعر - لا إرادياً - بالخجل والحياء الذي لا تستطيع كثيراً أن تقاومه، فما تلبث أن تستتر، وتحتشم.

ولو كلَّمها شابّ غريب، أو حاول التَّحرُّش بها، نجدها تضطرب وتتلعثم ويتصبّب عَرَقُهَا، وتستحي، ثم ما تلبث أن تهرب منه كما تهرب الفريسة من الوحش الكاسر. فعلى قدر صعوبة الزنى والخطيئة على نفس الفتاة الشريفة أصيلة الشرف، على قدر صعوبة العفاف على الأَمَة. فالأَمَة سهلة الانقياد للخطيئة، سريعة الانحدار إلى هاوية الفاحشة، لذلك؛ فقد كان من رحمة الله بها أنْ خفَّف عنها عقوبة جريمة هو يعلم أنها غير قادرة كثيراً على عدم ارتكابها. أمَّا تلك الفتاة وراثية العفَّة، والتي تمتلك من الروادع النفسية الفطرية ما يجعلها غير مُضطرَّة للوقوع في الفاحشة، فإنها لو عاندت فطرتها، وتحدَّت طبيعتها، وتمرَّدت على ثقافتها المُتأصِّلة، فإنها تستحقُّ عند ذلك أقصى درجات العقوبة.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾[1].

يقول السمعاني: أيْ مِثْلَيْ عذاب غيرها، فإنْ قيل ولم تستحقّ مِثْلَي عذاب غيرها، قلنا لشرف حالها بصحبة النبي، وهذا كما أن الحُرَّة تُحَدُّ

---

(1) الأحزاب، 30.

مِثْلَي حَدّ الأَمَة لشرف حالها، وقد استدلَّ أبو بكـر الفـارسي في أحكـام القرآن بهذه الآية على أنهنَّ أشرف نساء العالم.[1]

لم يعـد هنالـك إمـاء اليـوم، ولكـنَّ صـفات الإمـاء وطبـائعهنَّ بحذافيرها نجدها بين ظهرانينا في نساء أهل ما يُسمَّى بالكتاب.

فالكتابية التي تربَّت وتطبَّعت على حُبِّ التَّعـرِّي وعـشق الـسفاح والبغاء واتخاذ الأخدان، والتَّحـرُّر المُطلـق مـن جميـع معـاني الـشرف والعفاف، لا نجد في تركيبتها العقائدية وتكوينهـا الثقـافي مـا يختلـف قدر أنملة عن ما كانت عليه الأَمَة والبغي.

وهي عقلية قد ورثتها المرأة الغربية صاغراً عن صـاغر، منـذ أيـام أفروديـت، وفينـوس، وعبـادة الأنثـى المُقدَّسـة في هيئتهـا الجنـسية الإغرائية المحضة، لذلك؛ فليس عليها حرج، أو لـوم، فهـي مدفوعـة للرذيلة برغم إرادتها، وبفعل تكوينها الجيني الخارج عـن قـدرتها عـلى السيطرة. ولكن اللوم الحقيقي هو على مَنْ جاء بها إلى بلادنـا، وأمَّنَهَـا على بيوتنا، ووضع في يدها مقاليـد صـناعة أبنائنـا، وبناتنـا، وتكـوين أُسَرنا، وتربية أجيال نشئنا بحجَّة جواز نكاح الكتابيات.

بعد أن بدأ شراذم من المُبتعثين في التقاط طـروش البـارات، وزبـد الخمارات، ولقائط المراقص، وحثالات أنديـة التَّعـرِّي، فيتزوَّجـوهنَّ، ويأتون بهنَّ إلى البلاد، لتدَّعي إحـداهنَّ الإسـلام، وتـصبح بـين ليلـة

---

(1) تفسير السمعاني، 4 - 278.

وضحاها سيدة من سيدات المجتمع، ومُربّية من مربّيات النشء المسلم. بدأنا - الآن - نجني نتائج ذلك، ونرى آثاره واضحة في تلك الدعوات التي بدأت تنطلق صارخة بالقرب من آذاننا، تنادي بتحويل الحرائر الشريفات إلى إماء. تلك الدعوات التي يُطلقون عليها - تنميقاً - اسم «تحرير المرأة» حتى جعلونا نُصدِّقها في بداية الأمر، عندما ظننا أنها كلمة حقّ كما كانوا يدَّعون، ولكنْ؛ سرعان ما اكتشفنا مقدار ما أُريد بها من باطل عندما وجدناها تكشف عن وجهها الحقيقي في الأسواق وكُلِّيَّات البنات الأهلية.

عندما وجدنا بناتنا بدأنَ يتَّخذن الأخدان، لم نملك سوى أن صرخنا بأعلى أصواتنا: ألا رضي الله عنكَ وأرضاكَ، يا أمير المؤمنين.

روى ابن جرير عن سيف، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن سعيد بن جبير قال: بَعَثَ عمر بن الخطاب إلى حذيفة بعد ما ولاه المدائن، وكثر المسلمات:

«إنه بلغني أنكَ تزوَّجتَ امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب، فَطَلِّقْهَا».

فَكَتَبَ إليه لا أفعل حتى تخبرني أَ حلال؟ أم حرام؟ وما أردتَ بذلك؟ فكتب إليه:

«لا، بل حلال، ولكنْ؛ في نساء الأعاجم خلابة، فإنْ أقبلتُم عليهنَّ، غلبنكُم على نسائكم». فقال: الآن، فَطَلَّقَهَا.

وروى - أيضاً - عن السري عن شعيب، عن سيف، عن أشعث ابن سوار، عن أبي الزبير، عن جابر قال: شهدتُ القادسية مع سعد، فتزوَّجنا نساء أهل الكتاب، ونحن لا نجد كثير مسلمات، فلمَّا قفلنا، فمنَّا مَنْ طلَّق، ومنَّا مَنْ أمسكَ.[1]

وبأبي أنت وأمي، يا رسول الله، فقد روى عن كعب بن مالك - رضي الله عنه - أنه أراد أن يتزوّج يهودية أو نصرانية، فسأل رسول الله ﷺ فنهاه عنها، وقال: «إنها لا تُحصنكَ».[2]

---

(1) تاريخ الطبري، 2-437.

(2) رواه البيهقي والدارقطني وابن أبي شيبة.

المراجع والمصادر

1- القرآن الكريم.

2- صحيح البخاري.

3- صحيح مسلم.

4- سُنن الترمذي.

5- سُنن النسائي.

6- سُنن أبي داود.

7- سُنن البيهقي الكبرى.

8- سُنن الدارقطني.

9- مُصنَّف ابن أبي شيبة.

10- تفسير ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار الفكر، بيروت، 1401 للهجرة.

11- تفسير الطبري: مُحَمَّد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، 1405 للهجرة.

12- **تفسير السمعاني:** منصور بن مُحَمَّد السمعاني، دار الوطن، الرياض، 1418 للهجرة.

13- **تفسير ابن أبي حاتم:** عبد الرحمن بن مُحَمَّد الرازي، المكتبة العصرية، صيدا.

14- **التفسير الكبير:** فخر الدين الشافعي، دار الكُتُب العلمية، بيروت، 1421 للهجرة.

15- **أضواء البيان:** مُحَمَّد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة، بيروت، 1415 للهجرة.

16- **التسهيل لعلوم التنزيل:** مُحَمَّد بن أحمد الكلبي، دار الكتاب العربي، لبنان، 1983م.

17- **الدُّرّ المنثور:** عبد الرحمن السيوطي، دار الفكر، بيروت، 1993م.

18- **أحكام القرآن للجصَّاص:** أحمد بن علي الجصَّاص، دار إحياء التراث، بيروت، 1405 للهجرة.

19- **المغني:** عبدالله بن أحمد بن قدامى المُقدَّسي، دار الفكر، بيروت، 1405 للهجرة.

20- **تاريخ الطبري:** أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري، دار الكُتُب العلمية، بيروت.

21- **البداية والنهاية:** إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، مكتبة المعارف، بيروت.

22- **المِلَل والنِّحَل:** مُحَمَّد بن عبد الكريم الشهرستاني، دار المعرفة، بيروت 1404، تحقيق مُحَمَّد سيد كيلاني.

23- **أيام العرب قبل الإسلام:** أبو عبيدة معمّر بن المثنى التيمي، تحقيق الدكتور عادل جاسم البياتي، مكتبة النهضة العربية،1987م.

24- **سمط النجوم العوالي:** عبد الملك بن حسين الشافعي المكّي، دار الكُتُب العلمية، بيروت، 1998م.

25- **أديان الهند الكبرى:** الدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، 1997م.

26- **الأديان في القرآن:** الدكتور محمود بن شريف، دار عكاظ للطباعة والنشر، جدّة.

27- **دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية:** الدكتور سعود بن عبدالعزيز الخلف، مكتبة العلوم والحِكَم، المدينة المنوَّرة، 1414.

28- **دراسات في التاريخ الإسلامي:** الدكتور فاروق عمر فوزي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمَّان، 2005.

29- **العصر الجاهلي:** د. شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة السابعة عشر.

30- **نصوص تاريخية في التاريخ الإسلامي**: د. السيد عبدالعزيز سالم، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2002م.

31- **تاريخ أوروبا العصور الوسطى**: الدكتور السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، 1968م.

32- **عشتار ومأساة تموز**: الدكتور فاضل عبد الواحد علي، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1999م.

33- **المسيحية وأساطير التَّجسُّد في الشرق الأدنى القديم**: دانييل إ. باسوك، النّسخة العربية، ترجمة سعد رستم، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق، 2002.

34- **الكتاب المُقدَّس** (العهد الجديد).

لمحة إلى المُؤلِّف

الاسم: مُحَمَّد إبراهيم سرتي.

مكان الولادة وتاريخها: المملكة العربية السعودية، مكَّة المُكرَّمة، 1388 هـ.

المُؤهِّل العِلْمي : بكالوريوس في التاريخ السياسي من جامعة «أمباسادور» الأمريكية.

السِّيرة الوظيفية :

شغل وظيفة مراقب مطبوعات، في وزارة الإعلام، في المملكة العربية السعودية.

يشغل - حالياً - منصب المُدير العام لشركة «أطوار جدَّة».